الباب الثانى

المجاز

لمحة عن تطور لفظ «المجاز»:

أول من تكلم بلفظ «المجاز» هو أبو عبيدة (ت ٢٠٧ هـ) فى كتابه «مجاز القرآن» ولم تكن كلمة «المجاز» عنده بالمعنى المعروف الآن - وهو مايقابل الحقيقة - وإنما كان المراد توضيح الكلمة وتفسير معناها، فيقول مثلا فى قوله تعالى: (الرَّحْمَنُ على العَرْشِ اسْتَوى) (طه ٥) أى علا، وفى قوله: (إنْ هُوَ إلا رجلٌ به جِنَّةٌ) (المؤمنون ٢٥) مجازها الجنون وهما واحد[١].

ولو تتبعنا كتابه لوجدناه تفسيرًا لغريب القرآن، وكان بعيدًا عن التعرض لإبراز الصور البيانية فى القرآن، ومع ذلك فقد عده بعض الباحثين النواة الأولى للبحوث البيانية[٢].

وتكلم الفراء «ت ٢٠٧ هـ» عن المجاز بالمعنى اللغوى الذى رأيناه بوجه عام فى «مجاز القرآن[٣]».

وكذلك ابن قتيبة «٢٧٦ هـ» كانت كلمة «المجاز» عنده تعنى ما كانت تعنية عند أبى عبيدة، يقول: «وللعرب المجازات فى الكلام ومعناها طرق القول ومآخذه، ففيها الاستعارة والتمثيل، والقلب والتقديم والتأخير، والحذف والتكرار والإخفاء والإظهار، والتعريض والإفصاح، والكناية والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين،

---

(١) مجازالقرآن جـ٢/٥٦، ٥٧.

(٢) مناهج تجديد ١٠٧، القرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية ٢٤٥، مقدمة بديع القرآن ٤٦.

(٣) أثر القرآن فى تطور النقد العربى ٥٧.

والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص مع أشياء كثيرة سنريها فى أبواب المجاز إن شاء الله»[١].

ويختلف ابن قتيبة عن أبى عبيدة فى فهم «المجاز» بأنه كان أكثر تحديدًا لمدلول الكلمة إذ نقلها إلى المدلول البيانى، وعرفها بأنها «طرق القول ومآخذه» أى فنون الكلام[٢].

وجاء القرن الثالث ومعه المتكلمون من المعتزلة وقد حاولوا تخليص العقيدة من كل ما لابسها من سوء فهم، وكان مبدأ التوحيد عندهم منطلقًا أساسيًّا لمبحثهم فى المجاز دفاعاً عن الألوهية من كل ما يمكن أن يقوم حولها من فهم يؤدى إلى التجسيم أو التشبيه.

وقد واجهوا كل النصوص القرآنية، أو الأحاديث الشريفة التى تتعارض مع عقيدتهم، أما الأحاديث فقد تحللوا مما خالف عقيدتهم منه بالطعن فى متن الحديث أو سنده، وقد جرح النظَّام أبا هريرة وابن مسعود وغيرهم من رواة الحديث مما كان له آثاره السيئة عند أبن أبى قتيبة[٣]، أما القرآن فلم يكن لهم من سبيل إلى نقده، لكنهم حرروا عقولهم واستخدموها فى تأويل الآيات المتشابهة وخرجوا بها عن ظاهرها حتى تتوافق مع عقيدتهم.

وكانوا فى تأويلاتهم يعتمدون على الأساس اللغوى، فكانوا يحملون العبارات الدالة على التصوير والتشبيه والتى لا يليق ظاهرها بمقام الألوهية على وجوه تكون أبعد ما يكون عن التجسيم والتشبيه، استنادًا على أدلة اللغة المستمدة من الشعر القديم والموروث عن لغة العرب، وكانوا فى ذلك يتكئون على ما روى ابن عباس عن النبى - صلى الله عليه وسلم - «إذا اشتبه عليكم شىء من القرآن فاطلبوه من الشعر»[٤].

---

(١) تأويل مشكل القرآن ١٥.
(٢) أثر القرآن فى تطور النقد العربى ١١٣.
(٣) تأويل مختلف الحديث ص ٢١ وما بعدها.
(٤) مجالس ثعلب ٣١٧.

فمثلا كانوا يتوقفون عند قوله تعالى : (الرَّحمنُ على العَرشِ اسْتَوى) (طه ٥)، يقول القاضي عبد الجبار رداً على المجسمة : «قالوا : الاستواء إنما هو القيام والانتصاب، وهما من صفات الأجسام، فيجب أن يكون الله جسما».

ومما قال في الجواب : إن الاستواء ههنا بمعنى الاستيلاء والغلبة، وذلك مشهور في اللغة، قال الشاعر :

فلما علَوْنا واستَوْينا عليهم تركناهمُ صَرْعى لِنسْر وكَاسِرِ

وقال آخر :

قد استَوَى بِشْرٌ على العراق مِنْ غَيْر سيفٍ ودم مُهراقِ

فالحمد للمهَيْمن الخَلاَّقِ[1]

وبذلك تنتفي شبهة التجسيم من الآية، ويصبح المعنى : الاستيلاء والاقتدار والغلبة، وكان ذلك بالرجوع إلى أصل اللغة.

* * *

وكان الجاحظ «ت ٢٥٥ هـ» أول باحث يعد «المجاز» مقابلا للحقيقة - بالمعنى المعروف الآن - وليس بمعنى التفسير - كأبي عبيدة - وقد كانت دراسة الجاحظ للمجاز صورة صادقة لبحوث المعتزلة، فقد اختلف مع أهل الظاهر وأصحاب الحديث في المجاز وخاض معهم بسببه المعارك، واتهمهم بالنقص في الإدراك وعدم الفهم، وقصَر الإلمام بدقائق الأسلوب القرآني، فضلا عن أساليب العرب، وضرب لذلك أمثلة، فقال في قوله تعالى : (يَخْرُج منْ بُطُونها شَرابٌ) (النحل ٦٩)، العسل : ليس شرابًا، وإنما هو شيء يحول بالماء شرابًا، أو بالماء نبيذا، فسماه شرابًا إذ كان منه يجيء الشراب، ومن حمل اللغة على هذا المركب لم يفهم من العرب قليلا ولا كثيرًا، وهذا الباب مفخرة العرب في لغتهم وبه وبأشباهه اتسعت، فهل سمعتم بأحد أنكر هذا الباب وطعن عليه من هذه الحجة ؟[2].

(١) شرح الأصول الخمسة ٢٢٦، متشابه القرآن ٧٤، تنزيه القرآن عن المطاعن ٣٥١.
(٢) الحيوان جـ ٥/٤٢٦.

ويقول فى قوله تعالى : (إن الذين يأكُلون أموالَ اليتامى ظُلمًا) (النساء ١٠) وقد يقال لهم ذلك وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة، ولبسوا الحلل، وركبوا الدواب، ولم ينفقوا منها درهمًا واحدًا فى سبيل الأكل، وقد قال : (إنَّما يأكُلُون فى بُطونهم نارًا)، وهذا مجاز آخر.

ومضى الجاحظ يقرن الآية بآيات أخرى، وبعض أشعار العرب التى تجرى مجرى الآية فى المجاز، ويعقب على ذلك بقوله : «هذا كله مجاز؟[1]».

ويعلق أحد الباحثين على كلام الجاحظ بقوله[2] : «واستعماله لكلمتى الحقيقة والمجاز فى «الحيوان» يدخل فى استعمال البلاغيين المتأخرين، فقد استعملهما بمعناهما الدقيق، ولعل ذلك يدل على أن ابن تيمّية أخطأه التوفيق حين زعم أن تقسيم اللفظ إلى حقيقة ومجاز تقسيم حادث بعد الثلاثة القرون الأولى للهجرة».

وقد أخذ الباحث بعض نص ابن تيمية وأهمل بعضه ونسب إليه الخطأ وهو منه براء، وهذا نص ابن تيمية كاملا.

«فهذا التقسيم - يعنى الحقيقة والمجاز - هو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة الأولى، ولم يتكلم به أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ولا أحد الأئمة المشهورين فى العلم، كمالك، والثورى، وأبى حنيفة، والشافعى، بل ولا تكلم به أئمة اللغة والنحو، كالخليل، وسيبويه، وأبى عمرو بن العلاء، وغيرهم، وأول من عرف أنه تكلم بلفظ «المجاز» أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه، ولم يَعْن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة، وإنما عنى بمجاز الآية : ما يعبر به عنها، وإنما اشتهر فى المائة الرابعة، وظهرت أوائله فى المائة الثالثة، وما علمته موجودًا فى المائة الثانية إلا أن يكون فى أواخرها»[3].

وبتمام نص ابن تيمية نرى أنه يتفق مع الباحث فى أن هذا التقسيم ظهرت

---

(١) الحيوان جـ٥/٥٢، ٢٨.

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ٥٦.

(٣) الإيمان ٨٣، ٨٤.

أوائله فى المائة الثالثة، وإنما اشتهر فقط فى المائة الرابعة، وبهذا يسقط الاعتراض على ابن تيمية من أساسه[١].

* * *

وقد كان أمام المعتزلة فى كل الآيات التى يوهم ظاهرها التشبيه والتجسيم نوعين من الدلالة: ما يسمى بالمعنى الأول - وهو المعنى الظاهر المكشوف والذى يستتر تحته المعنى المجازى، وذلك كالاستواء فى الآية السابقة، أو اليد الجارحة فى قوله تعالى: (يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِم) (الفتح ١٠)، وما يسمى بالمعنى الثانى - وهو المعنى المستتر والتى تشير إليه الصورة الحسية على جهة اللزوم أو التضمن، ويصلون إلى هذا المعنى الثانى عن طريق الرجوع إلى اللغة أو تحكيم القياس العقلى، والربط بين الآيات المتشابهة والآيات المحكمة، وفهم الأولى على ضوء الثانية، وكل هذا يؤدى إلى تعديل الدلالة الظاهرة للآيات المتشابهة وتحويلها إلى المجاز، وبهذا لا تتعارض النصوص مع مذهبهم فى التوحيد، ومن ثم تصبح كلمة «الاستواء» مرادًا بها الاستيلاء والغلبة والتمكن، و«اليد» مرادًا بها القدرة[٢].

إنكار المجاز:

فى الوقت الذى نبتت فيه فكرة المجاز عند المعتزلة عارضتها أصوات قوية آملة فى موت الفكرة، وقالت: لم المجاز؟ ألم يكن من الأولى أن يعبر القرآن عن أهدافه تعبيرًا مباشرًا بدلا من هذا التجوز الموهم فى الدلالة؟ وإذا كان من المعلوم أن المتكلم لا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا ضاقت به الحقيقة، فهل يمكن أن يوصف الله سبحانه - وهو الذى لا يعجزه شىء - بذلك؟

هذا التساؤل دفع علماء الظاهرية، كداود بن على الأصبهانى «ت ٢٧٠ هـ» وابنه أحمد «ت ٢٩٧ هـ»، وابن القاص من الشافعية «ت ٣٣٥ هـ» وغيرهم إلى إنكار المجاز وقالوا: إنه أخو الكذب والقرآن منزه عنه، وأن المتكلم لا يعدل عن

(١) بلاغة القرآن فى آثار القاضى عبد الجبار ٢٩.

(٢) انظر الصور الفنية فى التراث النقدى والبلاغى ١٥٦.

الحقيقة إليه إلا إذا ضاقت به الحقيقة فيستعير، وذلك محال على الله تعالى»[١]. وقد جرى ابن حزم الأندلسى «ت ٤٥٦ هـ» مجرى داود الظاهرى[٢].

لكن جمهور أهل السنة والأشاعرة والمعتزلة رأوا خلاف ذلك، فالمجاز عندهم ليس عجزاً فى التعبير بل هو مظهر من ثراء العبارة، وقد نزل القرآن الكريم بلسان عربى مبين وفيه ما فى لغة العرب من المجازات فى أجمل نظم.

كما أن المجاز ليس كذبًا، يقول ابن قتيبة - وهو من أهل السنة - : «لو كان المجاز كذبًا لكان أكثر كلامنا فاسدًا، لأنا نقول : نبت البقل، وطالت الشجرة، وأينعت الثمرة، وأقام الجبل، ورخص السعر، ونقول : كان هذا الفعل منك فى وقت كذا وكذا، والفعل لم يكن وإنما كون»[٣].

وفى موضع آخر يرى أن العرب تقول إذا أرادت تعظيم مهلك رجل عظيم : «أظلمت الشمس له، وكسف القمر لفقده، وبكته الريح والسماءُ والأرض، يريدون المبالغة فى وصف المصيبة به، وأنها قد شملت وعمت، وليس ذلك بكذب لأنهم جميعًا متواطئون عليه، والسامع له يعرف مذهب القائل فيه، وهكذا يفعلون فى كل ما أرادوا أن يعظموه ويستقصوا صفته، ونيتهم فى قولهم : أظلمت الشمس، أى كادت تظلم، وكسف القمر، أى كاد يكسف، ومعنى «كاد» هم أن يفعل ولم يفعل، وربما أظهروا «كاد»، وأكثر ما فى القرآن من مثل هذا فإنه يأتى بـ «كاد»، فما لم يأت بـ «كاد» ففيه إضمارها، كقوله : (وبَلَغَت القلوبُ الحَنَاجر) أى كادت من شدة الخوف تبلغ الحلق[٤].

ويقول عبد القاهر - وهو أشعرى - : «من قدح فى المجاز وهم أن يصفه بغير الصدق فقد خبط خبطًا عظيمًا، ويهدف لما لا يخفى، ولو لم يجب البحث عن حقيقة المجاز والعناية به حتى تحصل دروبه وتضبط أقسامه إلا للسلامة من مثل هذه القالة، والخلاص مما نحا نحو هذه الشبهة لكان من حق العاقل أن يتوفر عليه،

---

(١) البرهان جـ٢/٢٥٥، المثل السائر جـ١/١٠٦، الإتقان جـ٢/٣٦.

(٢) انظر ابن حزم حياته وعصره ٢٢٦ - ٢٥٥.

(٣) تأويل مشكل القرآن ٩٩.

(٤) المصدر السابق نفسه ١٢٧.

ويصرف العناية إليه، فكيف وبطالب الدين حاجة ماسة إليه من جهات يطول عدها»[١].

وليس هناك ما يبرر منعَ أهلِ الظاهر من التأويل المجازى للقرآن الكريم، وتوهمهم أن المجاز - والاستعارة أهم أقسامه - إنما هو من قبيل القول الكاذب الذى ينبغى أن ينزه القرآن الكريم عنه، وهذا الفهم ليس له أساس عند عبد القاهر لأن الاستعارة لا تغير المعنى أو تعدله، وإنما تغير طريقة إثباته، وتجعله آنق وأشد تأثيرًا مما لو قدم عاريًا دون ثوب الاستعارة أو كسائها.

إن الاستعارة من «العارية» وحالها من المعنى حال الثوب يعاره الرجل فيتغير مظهره الخارجى، ويكتسى مهابة أو جمالا أو قبحًا، لكن ذلك كله من قبيل الأعراض الطارئة التى لن تدوم إلا بدوام مدة الإعارة، وكما أنك لا تستطيع أن تخلع الرجل من السوقة وتغير من جوهره عندما تخلع عليه ثياب الملوك، وتلبسه زيهم، إذ يظل الموك ملوكا والسوقة سوقة رغم الأزياء والأردية، كذلك المعنى محال أن يتغير فى ذاته عندما يكتسى ثياب الاستعارة أو يتبدى فى حللها.

وعلى هذا الأساس فلا بد أن تكون المزية التى تراها لقولك : رأيت أسدًا، على قولك : رأيت رجلا لا يتيمز عن الأسد فى شجاعته وجرأته، ليست فى أنك أفدت بالقول الأول زيادة فى مساواة الرجل بالأسد، بل فى أنك أفدت تأكيدًا وتشديدًا، وقوة فى إثباتك له هذه المساواة. «فليس تأثير الاستعارة إذن فى ذات المعنى وحقيقته بل فى إيجابه والحكم به[٢].

وهذا مما يؤكد حرص المتكلمين على نفى شبهة الكذب نفيًا تامًا.

الخلاف بين المثبتين للمجاز :

ليس هناك خلاف بين جمهور أهل السنة والمعتزلة فى التسليم بوجود المجاز فى القرآن الكريم، إلا أن التعارض بينهما يكمن فى مدى المضى والاستمرار فى تطبيق المجاز على القرآن.

---

(١) أسرار البلاغة ٣٣٩.

(٢) أسرار البلاغة ٢٨١، دلائل الإعجاز ٥٥.

فالمعتزلة يذهبون إلى أقصى حد، بينما يتوقف أهل السنة عند حدود بعينها، فالمعتزلة فلاسفة عقليون يخلعون على العقل أسنى درجات القداسة، ويلحون على القياس والاستنباط والنظر، أما أهل السنة وأصحاب الحديث فهم مؤمنون بالنقل ويقدمونه على القياس والنظر، لذلك نجدهم يتعاملون بحذر مع المجاز.

فقد كان المعتزلة ينظرون إلى نطق السماء والأرض، وكلام جهنم، وتسبيح الطير والجبال، على أنه من قبيل المجاز، فالآيات التى تسند الكلام إلى الخالق والحوار الذى يدور بينه وبين الكائنات لا تؤدى المعنى الحقيقى، وإنما هى مجازات لها حقائقها المجردة، والشعر القديم ملىء بالنظائر والأشباه.

وتلك صورة من الجدل الذى دار بين المعتزلة وأصحاب الحديث الذين يمثلهم ابن قتيبة[1] : «ذهب قوم فى قول الله وكلامه إلى أنه ليس قولا ولا كلامًا على الحقيقة، وإنما هو إيجاد للمعانى، وصرفوه فى كثير من القرآن على المجاز. . وقالوا فى قوله للسماء والأرض (ائتِيَا طوعًا أَوْ كرْهًا قالتَا أَتيْنا طائِعين) : لم يقل الله ولم يقولا، وكيف يخاطب الله معدوما؟ وإنما هذه عبارات لكونهما فكانتا، قال الشاعر حكاية عن ناقته :

تقولُ إذا دَرَأْتُ لها وضِينِى ... أهَـذ دينـه أبـدًا ودينى
أكلَّ الدهـرْ حِلٌ وارتحـالٌ ... أما يُبقَى علىَّ ولا يَقِينى؟[2]

وهى لم تقل شيئًا من هذا، ولكنه رآها على حال من الجهد والكلال فقضى عليها بأنه لو كانت ممن تقول لقالت مثل الذى ذكر.

وكقول الآخر: شَكَا إلى جَمَلى طولَ السُّرَى.

والجمل لم يشك ولكنه خبر عن كثرة أسفاره وإتعابه جمله، وقضى على الجمل بأنه لو كان متكلمًا لاشتكى مما به.

---

(١) تأويل مشكل القرآن ٧٨، ٧٩.

(٢) درأت : بسطت، الوضين : بساط عريض من شعر.

وقول عنترة فى فرسه :

فازْوَرَّ من وَقْع القَنَا بِلبانه وشكـا إلى بَعْبرِة وتَحَمحُم

لما كان الذى أصابه يُشتكى مثله ويُستعبر منه جعله مشتكيًا مستعبرًا، وليس هناك شكوى ولا عَبرة.

ومثل ذلك فى قوله تعالى : (إنما قَوْلُنا لِشَىْءٍ إذَا أردْناه أن نقُول له : كُنْ فَيكُون) (النحل ٤٠)، وقوله : (وكلَّم الله موسى تَكْلِيمًا) (النساء ١٦٤).

ولكن ابن قتيبة يذهب إلى العكس من ذلك ويقول :

«ومافى نطق جهنم ونطق السماء والأرض من العجب، والله تعالى ينطق الجلود والأيدى والأرجل، ويسخر الجبال والطير بالتسبيح فقال تعالى : (إنا سخرنا الجبَالَ مَعَه يُسَبِّحْنَ بالعشىِّ والإشْراق، والطير محشورة كلٌّ له أوَّاب) (ص ١٨، ١٩) وقال : (يا جبالُ أوِّبِى مَعَهُ والطَّير) (سبأ ١٠)، أى سبحن معه، وقال : (وإنْ من شىءٍ إلا يُسبِّح بحمده ولكن لا تَفْقَهون تسبيحَهُم إنه كان حَليمًا غفورًا) (الإسراء ٤٤) وقال فى جهنم : (تكاد تَمَيَّزُ من الغَيْظ) (الملك ٨) أى تتقطع غيظًا عليهم، وقال : (إذَا رأَتْهُم من مكان بعيدٍ سمِعوا لها تغيظًا وزفيرًا) (الفرقان ١٢)، وروى فى الحديث أنها تقول قط قط، أى حسبى، وهذا سليمان – عليه السلام – يفهم منطق الطير، وقول النمل، وهذا رسول الله تخبره الذراع المسمومة، ويخبره البعير أن أهله يجيعونه ويدئبونه، وفى أشباه لهذا كثيرة»[1].

ومرة أخرى يناقش ابن قتيبة هذه التفسيرات ويجادلهم بذات سلاحهم فيعتمد على اللغة، فهو يوافق على أن القول يقع فيه المجاز إذ تقول العرب قال الحائط، وقال البعير، ولكنه يؤكد أن الكلام لا يقع فيه مجاز، ولا تقول العرب – فى مثل هذه الحالة – «تكلم» إذ لا يعقل الكلام إلا بالنطق بعينه «خلا موضع واحد وهو أن تتبين فى شىء من الموات عبرة وموعظة، فتقول : خبّر وتكلم وذكّر، لأن ذلك معنى فيه فكأنه كلمك». هذا من ناحية.

---

(١) تأويل مشكل القرآن ٨٣، ٨٤.

ومن ناحية أخرى فإن أفعال المجاز - فيما يقول - لا تجيء منها المصادر ولا تؤكد بالتكرار أو غيره، وإلا كانت أفعالا حقيقية لا مجاز فيها، وعلى هذا الأساس، فإن «القول» فى الآية : (إنما قَوْلُنا لِشيء إذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نقول له كُنْ فيكون) ليس من قبيل المجاز، لأن الآية أكدت القول بالتكرار، وأكدت المعنى بإنما، وأما قوله تعالى : (وكلم الله موسى تكليمًا) الذى يدخله المعتزلة فى دائرة المجاز، فليس منها، وإنما هو من قبيل الحقيقة، لأن الآية استخدمت الفعل «كلم» وهو لايكون مجازًا إلا فى حالة واحدة معروفة ليست منها الآية، فضلا عن أن فعل التكلم قد أكد باستخدام المصدر وهو «التكلم»، فخرج الفعل بذلك عن نطاق المجاز، ودخل فى دائرة الحقيقة الذى ينبغى أن يفهم بالنظر إلى الآية : (وما كان لبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمه الله إلَّا وحْيًا أو مِنْ وَراء حجاب أَوْ يرسل رسولاً فَيُوحِى بإذنه ما يشاء)، أى أن كلام الله لموسى كان وحيًا أو من وراء حجاب[1].

وظلت كلمة «المجاز» تتردد على ألسنة العلماء فى بحوثهم، وصار يتطور مفهومه ومدلوله حتى أخذ وضعه الاصطلاحى ومكانه فى البحث البلاغى فى عصر السكاكى ومدرسته.

* * *

(١) تأويل مشكل القرآن ٨٠ - ٨٣.

أقسام المجاز

ينقسم المجاز إلى قسمين :

الأول : مجاز فى الإسناد أو فى التركيب وقد سبق ذلك فى علم «المعانى»[1] وعرفنا أن إسناد الفعل إلى فاعله فى نحو قوله تعالى : (إنَّ الله فَالِق الحبِّ والنَّوَى يُخْرِجُ الحىَّ من الميّتِ ومُخرِجُ الميِّت من الحى) (الأنعام ٩٥) من قبيل الحقيقة العقلية، لأن الفعل وما فى معناه - فالق يخرج، مخرج - فى الآية أسند إلى ما حقه أن يسند إليه، لأن هذه الأفعال من خصوصيات المولى سبحانه، كما أن إسناد الفعل إلى فاعله فى نحو قوله تعالى حكاية عن فرعون : (يا هامانُ ابْنِ لى صَرْحًا لَعِّلى أبلغُ الأسْبَاب) (غافر ٣٦)، من قبيل المجاز العقلى، لأن هامان لا يبنى بنفسه وإنما هو الآمر للعمال بالبناء فهو سبب فقط، فالفعل مسند إلى السبب، والمجاز فى الإسناد فقط، ليس فى الفعل ولا فى الفاعل، وهذا يسمى بالمجاز العقلى.

الثانى : مجاز فى الكلمة أو فى الإفراد - فإذا أطلقت لفظ «الرجل» على الإنسان، و«الفرس» على الحيوان المعروف، و«السحاب» على الغمام المتكاثف فى السماء، كنت مستعملا اللفظ فى معناه الأصلى الذى وضعه له أهل اللغة، ويسمى ذلك حقيقة لغوية.

أما إذا أطلقت على الرجل الشجاع لفظ «الأسد»، وعلى الفرس السريعة لفظ «الريح»، وعلى الكريم لفظ «السحاب»، لتدل على صفة الشجاعة فى الأول، وعلى السرعة فى الثانى، وعلى الكرم فى الثالث، لم يكن هذا الاستعمال حقيقة، لأن اللفظ قد استعمل فى غير ما وضع له، ويسمى هذا مجازًا لغويًا.

وقد جمع المتنبى الحقيقة والمجاز فى بيت واحد، فقال :

---

(١) المعانى فى ضوء أساليب القرآن ١٢٨ ط ثانية.

تعرَّض لى السَّحابُ وقد قَفَلْنَا فقلتُ إليكَ عَنِّى إنَّ مَعَى السَّحابا
فَشِمْ فى القُبَّة الملِك المرجَّى فامسَكَ بَعْدَ ما عزَمَ انْسِكابا[1]

فكلمة «السحاب» الأولى حقيقة، والثانية المراد منها الممدوح «استعارة» لعلاقة المشابهة بين المعنيين، فالسحاب يجود بالغيث والكريم يجود بالمال، والقرينة قوله: «معى».

وكذلك قول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجْهَلَن أحدٌ علينا فنجهلَ فوق جَهْلِ الجاهلينا

فكلمة «الجهل» فى الشطر الأول معناه الاعتداء، وهو مستعمل فى معناه الحقيقى، وكذلك كلمة «جهل» الأخيرة فى الشطر الثانى، أما كلمة «فنجهل الوسطى، فقد أريد بها العقوبة، والعلاقة بين المعنيين السببية، وهى خلاف المشابهة.

فالحقيقة هى فى اللغة وصف على زنة فعيل بمعنى فاعل من قولهم حق الشىء إذا ثبت، قال تعالى: (لقد حَقَّ القولُ على أكْثرهم فهُم لا يُؤمنون) (يس ٧)، أو بمعنى مفعول من حققت الشىء إذا أثبته، ثم نقل هذا اللفظ فى الاصطلاح من الوصفية بمعنييها وجعل اسما للكلمة المستعملة فيما وضعت له، من حيث إنها ثابتة فى مكانها الأصلى «على التفسير الأول»، أو مثبتة فى مكانها الأصلى «على التفسير الثانى».

وأما المجاز فقد ذهب عبد القاهر[2] إلى أنه فى اللغة مصدر على وزن مَفْعَل بمعنى الجواز والتعدية، من جاز المكان إذا تعداه، ثم نقل إلى الكلمة المستعملة فى غير ما وضعت له من حيث إنها جائزة مكانها الأصلى، فيكون المصدر بمعنى اسم الفاعل، أو من حيث إنها مجوز بها مكانها الأصلى، فيكون المصدر بمعنى اسم المفعول.

---

(١) قفلنا: رجعنا، إليك: اسم فعل بمعنى تنح، شم: انظر. والمعنى: إن الممدوح كريم وقد أمر الشاعر السحاب أن ينظر إلى الملك الذى معه فلما نظر إلى السحاب أمسك عن إنزال الغيث بعد ما عزم على الانسكاب حياء من وجوده.

(٢) الدلائل ٣٤٢.

وذهب الخطيب[1] إلى أنه اسم للمكان الذى يجاز فيه، من حيث كونه طريقًا إلى تصور المعنى المراد.

وفى اصطلاح البيانين الكلمة المستعملة فى غير ما وضعت له، لعلاقة بين المعنى الموضوع له والمعنى المستعمل فيه – مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الموضوع له.

فالعلاقة بين المعنيين إن كانت المشابهة كما فى كلمات «الأسد، الريح، السحاب» سمى اللفظ استعارة، وإن كانت العلاقة غير المشابهة كما فى بيت عمرو ابن كلثوم كان مجازاً مرسلا، فالفارق بينهما من جهة العلاقة.

المجاز المرسل

هو ما كانت العلاقة فيه – بين المعنى الموضوع له اللفظ والمعنى المستعمل فيه – غير المشابهة.

وأهم علاقته:

١ – السببية: أن يكون اللفظ المذكور سببًا فى المعنى المراد.

كقوله تعالى: (إنَّ الذين يُبايِعُونَك إنما يُبَايعُون الله يَدُ الله فَوْقَ أَيْديهم) (الفتح ١٠)، فالمراد من اليد القدرة، إذ هى سبب فيها.

ومن هذا قوله – صلى الله عليه وسلم – لأزواجه عند وفاته: «أسرعكن لُحوقًا بى أطولكن يدًا». فاليد مجاز مرسل علاقته السببية – إذ المرد منها النعمة، ولفظ «أطول» استعارة، حيث إنها مستعملة فى «بسط اليد بالعطاء» وهذا إذا كان المراد من «الطول» المعنى المقابل للقصر.

وإذا كان من «الطَّول» بفتح الطاء – الذى هو الفضل والعطاء، فلا يكون هناك استعارة فيه إذ يكون مستعملا فى معناه الحقيقى، والمجاز المرسل كما هو.

---

(١) بغية الإيضاح جـ٣ ٨٩٤٢٣.

وإذا كان المراد من (أطولكن) : أمدكن يدا، كان الكلام من قبيل المجاز بالحذف فقط والتقدير أمدكن يدا بالعطاء، ولم يكن هناك مجاز مرسل ولا استعارة.

وقوله : (الشَّهْرُ الحرامُ بالشهر الحرام، والحُرُماتُ قصاصٌ، فمن اعتدى عليكم فاعْتَدُوا عليه بمثلِ ما اعْتَدى عليكمْ) (البقرة ١٩٤)، فقد سمى عقوبة الاعتداء اعتداء لأنه سبب فى العقوبة.

وقوله : (وجَزَاءُ سيئةٍ سَيِّئَةٌ مثلُها، فمَنْ عَفَا وأصلحَ فأَجْرُه على الله إنه لا يُحبُّ الظالمين) (الشورى ٤٠) سمى عقوبة السيئة سيئة لأنها سبب فى الجزاء، وفى تلك تقرير لإيجاب القصاص ضرورة ارتباط السبب بالمسبب، إذْ بعد تحصيل السبب لابد من تحقيق المسبب. وفى تسميته للجزاء والقصاص سيئة ترغيب فى العفو، وتنفير من العقوبة، ودعوة إلى التسامح من جهة[1] كما أن ذلك فيه إشارة إلى أن الجزاء سيكون شديدًا لا تقل شدته عن الأثر الذى يترتب على اقتراف المعاصى.

وقوله : (وإذا لقُوا الذين آمَنُوا قالُوا : آمنَّا، وإذا خَلَوا إلى شيَاطِينهم قَالوا : إنَّا مَعَكم، إنما نَحْنُ مستَهْزِئون، الله يستهزئ بهم) (البقرة ١٤، ١٥)، سمى عقوبة الاستهزاء استهزاء لأنه سبب فيها.

ومنه قول الشاعر :

ضعيفُ العَصَا بادِى العروقِ تَرى له عليها إذا أجْدب الناسُ إصْبَعا

أى له عليها أثر رعاية وحذق ومهارة، وعبر الشاعر عن الأثر هذا بالإصبع، لأنه سبب فيه إذ لا حذق فى صناعة إلا وهو مفاد من حسن تصريف الأصابع ومهارتها.

* * *

٢ - المسببية : أن يكون اللفظ المذكور مسببا عن المعنى المراد.

---

(١) وليس هذا حبا للظالم بدليل قوله : (إنه لا يحب الظالمين ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل).

كقوله تعالى: (هُوَ الذى يُرِيكم آياتِه، ويُنزل لكم من السَّماء رِزْقًا) (غافر ١٣)، فقد عبر بالرزق عن المطر، لأنه مسبب عن المطر، وفى التعبير بذلك ما يخيل للسامع انعدام الزمن بين نزول المطر والثمار التى تخرج من النبات، فالذى ينزل ليس مطرًا وإنما هو رزق يصير بين أيديهم، وفى ذلك تعجيل القرآن لصورة النعيم، واستحضار لما يستوجب الشكر، وفى ذلك ما يستدعى من العبد الخضوع والإنابة إلى هذا المنعم بهذا السخاء.

وقوله: (إن الذين يأْكُلُون أموال اليتامَى ظلما إنما يأكلون فى بطونهمْ نارًا) (النساء ١٠)، عبر بالنار عن مال اليتيم إذ النار مسببة عنه، وفى ذلك تنفير من أكل مال اليتيم، إذ تصور الآية أن الوصى فى عمله هذا لا يأكل المال وإنما يأكل النار، وفى هذا تعجيل القرآن لصورة العذاب، فهم لا يأخذون مالا، وإنما يأكلون نارًا، فأضمر سببا وأظهر مسببا فى موضع السبب ليستحضرا دفعة واحدة، ويقرن بين العمل والجزاء على جهة لا ينفك أحدهما عن الأخرى، وهكذا يرشد المسبب عن سببه، ويدل الفرع على أصله.

وقوله: (ويا قوم مَا لى أدعوكم إلى النَّجاة وتدْعوننى إلى النار) (غافر ٤١) وهم لم يدعوه إلى النار وإنما دعوه إلى الكفر، بدليل قوله بعده (تَدْعُونَنى لأكفر بالله)، لكن لما كانت النار مسببة عنه أطلقها عليه.

وقوله: (وسَارعُوا إلى مَغْفرةٍ من ربِّكم) (آل عمران ١٣٣)، والمغفرة مسببة عن التوبة فعبر بها عنها.

وقوله: (يا بَنى آدم قد أنزلْنا عليكم لباسًا يُوَارى سَوْءاتكم وريشًا) (الأعراف ٢٦) فالمنزل عليهم ليس هو اللباس، بل هو الماء المنبت للزرع المتخذ منه الغزل المنسوج منه اللباس[1].

* * *

(١) وقد سماه صاحب البرهان المجاز على المجاز، وسماه ابن السيد الطليوسى مجاز المراتب. انظر البرهان جـ ٢/٢٩٩.

٣ - الكلية : أن يكون اللفظ المذكور كلا للمعنى المراد.

كقوله تعالى : (والسارق والسارقة فاقْطعوا أيديَهما جزاءً بما كسَبَا) (المائدة ٣٨) والمراد القطع إلى الرسغ، فعبر بالكل وأراد الجزء.

وقوله : (يجْعلون أصابِعهم فى آذانهم من الصواعق حذرَ المْوت) (البقرة ١٩) المراد بالأصابع الأنامل، وفى ذلك ما يدل على شدة فزع المنافقين وخوفهم، لدرجة أنهم يَدُسون الإصبع كلها اتقاء لذلك حتى يتعطل السمع، ويوقف عمل الحاسة - كما أن نسبة الجعل للأصابع - دون السبابة - يدل على أنهم من فرط دهشتهم يدخلون أى إصبع كانت ولا يسلكون المسلك المعهود.

ومثلها قوله تعالى على لسان سيدنا نوح عليه السلام : (وإنى كلَّما دعوتهم لتغْفر لهم جَعَلوا أصابِعهم فى آذانهم) (نوح ٧).

وقوله : (فلما دَخلوا على يوسف آوَى إليه أبَوَيْه وقال ادخلوا مِصْر إن شاء الله آمِنين) (يوسف ٩٩)، فهم لم يدخلوا البلد كلها وإنما يدخلون جزءًا منها.

* * *

٤ - الجزئية : أن يكون اللفظ المذكور جزءًا من المعنى المذكور.

كقوله تعالى : (كلُّ من عليها فانٍ، ويبقى وجهُ ربِّك ذو الجلَال والإكرام) (الرحمن ٢٦، ٢٧) يعلق القاضى عبد الجبار على هذه الآية بقوله : ولا يبعد أن تكون الجملة وصفت بذلك، لأن بالوجه تتميز الجملة من غيرها، فلما كان التميز والتفرقة تقع به، وصفت بهذه الصفة[1]، وكأن الخصوصية وحدها هى المرادة، وكأن بقية الأجزاء فى خدمة هذه الخصوصية تأكيدًا لها ومبالغة فيها.

وقوله تعالى حكاية لقول الكفار فى النبى عليه السلام : (ومنهمُ الذين يُؤذون النبى ويقولون هو أُذُنٌ قل أُذُنُ خير لكمْ) (التوبة ٦١) عبر بالأذن وأريد ذات النبى، إذ بالأذن يقع السمع، وفى التعبير بذلك ما يدل على أن جملة المقبل آلة للاستماع مبالغة فى ولعه بالإصغاء للوشاة.

---

(١) المغنى جـ٦/٢٠٤.

وقوله : (هُوَ الذى أيدَكَ بنصره وبالمؤمنين، وألَّفَ بين قلُوبهم، لوْ أنْفَقْتَ ما فى الأرض جميعًا ما ألَّفْتَ بين قُلوبهم، ولكن الله ألفَ بيْنهم).(الأنفال ٦٢، ٦٣)، يقول عبد الجبار تعليقًا على هذه الآية : «إن التأليف بين القلوب حقيقةٌ أن ينضم بعضها إلى بعض، وذلك مما لا يصح أن يكون مرادًا، والتأليف إنما يكون فيما يرجع إلى الفاعلين بينهم لا بين قلوبهم، ومتى ذكر القلب فى ذلك فهو مجاز»[1]. فأطلق القلب وأراد قبيلة الأوس والخزرج.

وقوله : (سألقى فى قُلوب الذين كَفَروا الرعْبَ، فاضربُوا فَوْقَ الأعْنَاق، واضربوا منهم كل بَنَان) (الأنفال ١٢)، عبر بالبنان - وهى أطراف الأصابع - وأراد الأيدى والأرجل.

وقوله : (وَمن قَتَل مُؤمنًا خطأً فتَحْريرُ رَقَبَة مؤمنة، وديةٌ مُسَلمَةٌ إلى أهله إلا أن يَصَّدَّقُوا) (النساء ١٠٠)، فالمراد من الرقبة العبد، واختيرت «الرقبة» لأنها موضع القيد وموطن المذلة، فالسيد يضيق خناقه على العبد ويحكم زمامه كالسائمة المسلوبة يقودها صاحبها حيث شاء.

ويلاحظ أن الجزء الذى يعبر به عن الكل لابد أن يكون له مزيد اختصاص بالمعنى المراد، ولا يتحقق الكل إلا به، كدلالة اليد، والوجه، والأذن، والقلب، والرقبة، على الذات مثلا، فذكر الجزء الأهم من الصورة كثيرًا ما يبعث إلى المخيلة باقى الأجزاء ويبرز الصورة كاملة واضحة.

* * *

٥ - اعتبار ما يكون : هو تسمية الشىء بما يصير إليه.

كقوله تعالى : (ودخَل مَعَه السِّجْن فَتَيَان قال أحدهُما : إنِّى أَرَانِى، أعْصر خَمْرًا، وقال الآخر : إنِّى أَرَانِى أحمل فوق رَأسى خُبْزًا تأكل الطيُر منه) (يوسف ٣٦)، فالمراد بالخمر : العنب[2] الذى يصير إلى خمر، لأن الذى يُعصر العنب لا الخمر،

---

(١) المتشابه ٢٣٤، بلاغة القرآن فى آثار القاضى عبد الجبار ٢٣٠.

(٢) وقيل أن الكلام على الحقيقة، قال الزمخشرى : وقيل : الخمر بلغة عمان اسم للعنب، وفى قراءة ابن مسعود : أعصر عنبًا «الكشاف جـ ٢/٣١٩ ط الحلبى».

والمراد من الخبز: الحب الذى يصير إلى خبز لأن الذى يأكله الطير هو الحب.

وقوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم: (ربِّ هَبْ لِي من الصالحين، فبشرنَاهُ بغلام (حَلِيم) ، الصافات ١٠١)، فالطفل لا يولد غلامًا وحليمًا وإنما يولد لا يعرف شيئًا، فأطلق عليه لفظ «الغلام والحليم» تسمية له بما يصير إليه مستقبلا.

وقوله: (وقال نوحٌ ربِّ لا تَذَرْ على الأرْض من الكافرين ديارًا، إنك إن تَذَرْهُم يُضِلوا عِبَادك ولا يَلدوُا إلا فاجرًا كفارًا) (نوح ٢٦، ٢٧)، فالآية وصفتهم بما يصيرون إليه من الكفر والفجور، وهذا كقوله عليه السلام «من قتل قتيلا فله سلبه.

وقوله: (ذلك الكتابُ لا رَيْبَ فيه، هُدىً للمتقين) (البقرة ٢، ٣) أى الضالين سماهم متقين تسمية بما يصير إليه أمرهم مستقبلا.

وقوله تعالى مخاطبًا سيدنا محمدًا عليه السلام: (إنك مَيِّتٌ وإنهم ميتُون) (الزمر ٣٠) أى إنك ستموت وإنهم سيموتون، ولا بد من المصير المحتوم مستقبلا، بدليل مقام الخطاب، لأن من مات فعلا لا يخاطب. وفى كل ذلك صُوِّر غير الكائن كائنًا، وسمى ما كان باسم ما سيكون، استعجالا للأحداث، وقد وسعت اللغة هذه الصورة وضدها فزاد غناؤها.

* * *

= وقال الزمخشرى فى «هدى المتقين» فإن قلت، فلم قيل هدى للمتقين والمتقوم مهتدون؟ قلت: هو كقولك للعزيز المكرم: أعزك الله وأكرمك، تريد طلب الزيادة إلى ماهو ثابت فيه واستدامته كقوله تعالى: (اهدنا الصراط المستقيم).

ثم وجه الكلام إلى المجاز، فقال: «وهو أنه سماهم عند مشارفتهم لاكتساء لباس التقوى متقين، كقول ابن عباس: إذا أراد أحدكم الحج فليُعجل، فإنه يمرض المريض، وتضل الضالة وتكتفى الحاجة» فسمى المشارف للمرض والضلال مريضًا وضالة.

ثم بين سر المجاز فقال: فإن قلت: فهلا قيل «هدى للضالين»؟ قلت: فلو جىء بالعبارة المفصحة عن ذلك لقيل: هدى للصائرين إلى الهدى بعد الضلال، فاختصر الكلام، وأيضًا جعل ذلك سلمًا إلى تصدير السورة التى هى سنام القرآن وأول المثانى بذكر أولياء الله والمرتضين من عبادة. (الكشاف جـ١/١١٨).

٦ - اعتبار ما كان : وهو تسمية الشيء بما كان عليه.

كقوله تعالى : (ولكُم نِصْفُ ما تَرَكَ أَزْواجُكُم إنْ لَمْ يَكُنْ لهُن ولدٌ) (النساء ١٢) وإذا متْن لم يكنَّ أزواجًا، فسماهن بذلك لأنهم كن أزواجًا.

وقوله : (والذين يُتوفَّون منكم ويذَرُون أزواجًا يتربَصن بأنفسهن أرْبعَة أشهر وعشرًا) (البقرة ٢٣٤) سمى المرأة زوجة نظرًا لسابق حالتها لأن الزوجية تنقضى بالموت.

وقال مخاطبًا الأوصياء : (وآتُوا اليَتامى[1] أموالهم ولا تَتَبَدَّلُوا الخَبِيث بالطَّيِّب ولا تَأْكُلوا أَمْوالَهم إلى أموالكم) (النساء ٢) أى الذين كانوا يتامى، إذ لا يُتم بعد البلوغ، وفى ذلك إبراز للرشيد فى صورة القاصر ليحفظ للوصى ما قدم من رعاية، وكأنه يقول له : رشيد اليوم يتيمك فهُو ما زال فى حاجة إليك، فَسَاعِدْه ضَعيفة، وكل ذلك ليلين الوصى فيعطيه حقه كاملا، ويبرىء ذمته من ساحته.

وقوله : (إنَه مَنْ يَأْتِ ربَّه مُجْرِمًا فإنَّ له جهنَّم لا يَمُوتُ فيها ولا يَحْيى) (طه ٧٤) سماه مجرمًا نظرًا لما كان عليه حال الحياة من الإجرام.

وقوله : (الزَّانيةُ والزَّانى فاجْلدُوا كل واحد منهما مائةَ جَلْدَةٍ) (النور ٢)، سماهما

---

(١) وقال الكشاف وغرائب القرآن فى قوله تعالى : وآتوا اليتامى أموالهم» الكشاف جـ ٤٩٤/١، غرائب القرآن «أصل اليتيم : الانفراد، فاليتامى هم الذين مات آباؤهم فانفردوا عنه، واليتيم لغة : يتناول الصغير والكبير، إلا أنه فى عرف الشرع اختص بالذى لم يبلغ الحلم.

وإذا كان اليتيم فى الشرع مختصًا بالصغير فما دام يتيما لا يجوز دفع أمواله إليه، وإذا صار كبيرًا بحيث يجوز دفع ماله إليه لم يبق يتيما، فكيف قال : (وآتوا اليتامى أموالهم)؟ وفى الجواب طريقان : اثنان على الحقيقة، والثالث على المجاز، وبيان ذلك كالآتى :

١ - إن يراد باليتامى : الصغار، وبإيتائهم الأمول : ألا يطمع فيها الأولياء ويكفوا عنها أيديهم الخاطفة حتى تأتى اليتامى إذا بلغوا سالمة، وإن يؤتهم من أموالهم ما يحتاجون لنفقتهم وكسوتهم، وعلى هذا فالخطاب للأولياء.

٢ - أن يراد باليتامى : الكبار البالغون سماهم بذلك على مقتضى اللغة.

٣ - أن يراد باليتامى : قرب عهدهم باليتم، كقوله تعالى : (فألقى السحرة ساجدين) أى الذين كانوا سحرة قبل السجود، ويؤكد هذا قوله بعد : (فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم) والإشهاد لا يكون إلا بعد البلوغ، وقال ﷺ : «تستأمر اليتيمة فى نفسها» ولا تستأمر إلا وهى بالغة.

ويكون السر البلاغى للمجاز هو : ألا يؤخر دفع أموال اليتامى إليهم عن حد البلوغ، ولا يمطلوا إن أُونس منهم الرشد، وأن يؤتوها قبل أن يزول عنهم اسم اليتامى والصغار.

بهذا نظرًا لما كان عليه كل منهما. وفى ذلك استحضار لصورة الماضى وتجسيد له حتى يتصور السامع وقائع الحادث مرتين، ويربط ما كان من أحداثه بما يكون - لفتا للأصل، وتنبيهًا عليه.

٧ - المحلية: وهى تسمية الشىء باسم محله.

كقوله تعالى تهديدًا ووعيدًا لمن كان يؤذى النبى عليه السلام: (كلا لئِنْ لم يَنْتَهِ لنَسْفَعَنْ بالنَّاصيَة، ناصيةٍ كاذبةٍ خاطئةٍ، فَلْيَدْعُ نَادِيهْ) (العلق ١٤ - ١٧)، فأطلق النادى - وهو مكان اجتماع الناس - وأراد الحال فيه وهو أهله، ومنه قوله: (أىُّ الفريقين خيرٌ مقامًا وأحسنُ نديًّا)؟ (مريم ٧٣)، أى أناس فى ندى، وقوله على لسان إخوة يوسف: (واسْأَلِ القَرْيَةَ التى كنَّا فيها) (يوسف ٨٢) أى أهل القرية، لأن القرية جماد لا تسأل، وإنما هى مكان لمن يُسأل، وكأن إخوة يوسف - مبالغة فى إثبات براءتهم - طلبوا أن تسأل القرية من يجيب وما لا يجيب، إذ الواقعة مشهورة يعرفها العاقل وغيره.

وقوله: (يأَيها الرسولُ لا يَحْزُنكَ الذين يُسَارِعون فى الكُفْر من الذين قالوا آمَّنا بأفَواهِهم ولْم تؤمِن قُلُوبهم) (المائدة ٤١)، فعبر بالأفواه عن الألسن إذ هى محلها.

وقوله تعالى مخبرًا عما أعد لأهل الجنة من الجزاء: (وأصحابُ اليمين ما أصْحَابُ اليَمين، فى سِدْرٍ مَخْضُود. وفاكهةٍ كثيرةٍ، لا مقطوعة ولا ممنوعة، وفرش مرفوعةٍ، إنَّا أنْشأْناهنَّ إنشاءً) (الواقعة ٢٧ - ٣٥). قيل إن المراد بالفُرُش: النساء مرفوعة على الأرائك، كقوله تعالى: (هُمْ وأزْواجُهُم فى ظلال على الأرائِك مُتَّكئُون) (يس ٥٦) ويدل على أن المراد بالفرش النساء قوله بعد (إنا أنْشَأْنَاهُنَّ إنْشَاءً)[1].

ومنه قول جرير:

قلْ للجبانِ إذَا تأَخَّرَ سرْجُه هلْ أنتَ من شَرَكِ المنيَّةِ ناج؟

فالمراد من السرج: الراكب، من إطلاق اسم المحل على الحال.

* * *

(١) الكشاف جـ ٣٦٧/٤.

٨ - الحالية : وهى تسمية الشيء باسم الحال فيه.

كقوله تعالى : (وأَمَّا الذين ابْيَضَّتْ وجُوههم فَفِى رَحْمَةِ الله هم فيها خَالدُون) (آل عمران ١٠٧)، عبر بالرحمة وأراد الجنة لأن الرحمة حالة فيها، وفى هذا التعبير استحضارهما معا، توسعا فى المعانى، وثراء فى المعطيات.

وقوله : (إن الأَبْرَار لَفِى نعيم وإن الفُجَّارَ لفى جَحِيم) (الانفطار ١٣، ١٤) فالمراد من النعيم : الجنة، ومن الجحيم : النار.

ومنه قول الشاعر :

أَلِمَّا على مَعْنٍ وقولا لقَبره سقَتْكَ الغَوادى مَرْبَعًا بعد مربع[1]

الشاعر يطلب من صاحبيه النزول على قبر معن فأطلق الحال وأراد المحل.

وقد اجتمعت الحالية والمحلية فى قوله تعالى : (يا بَنِي آدمَ خذوا زينتكم عنْدَ كلِّ مسْجِدٍ) (الأعراف ٣١) فعبر عن الملابس بالزينة، إذ هى حالة فيها، فأطلق الحال وأراد المحل، لأن الزينة لا تؤخذ، والمراد من المسجد الصلاة، أطلق المحل وأراد الحال فيها.

* * *

٩ - الآلية : وهى إطلاق اسم الآلة ويراد الأثر الناتج عنه.

كقوله تعالى : (وما أَرْسَلْنَا من رسولٍ إلَّا بلسانِ قَوْمه) (إبراهيم ٤) أى بلغة قومه، فأطلق اللسان وأراد اللغة إذ اللسان آلتها.

وقوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم : (ربِّ هَبْ لى حُكْمًا وأَلْحِقْنى بالصَّالحين، واجعل لى لسانَ صِدْقٍ فى الآخِرين) (الشعراء ٨٣، ٨٤) أى ذكرًا حسنًا، أطلق اللسان وأراد الذكر الحسن إذ اللسان آلته.

وقوله تعالى لسيدّنا نوح عليه السلام : (واصْنَع الفلك بأَعْيُننا) (هود ٣٧)

---

(١) ألم بالمكان : نزل به، الغوادى : جمع غادية وهى السحابة تأتى غدوة، المربع : منزل القوم فى الربيع خاصة.

فالعين آلة الملاحظة وطريق المعرفة، يقول القاضى عبد الجبار: «والمراد بذلك أن اصنع الفلك بما أعطيناك من البصيرة والمعرفة، وسمى ذلك أعينا على جهة التوسع، كما يقول القائل لغيره، افعل ذلك بمرأى منى ومسمع[1]».

وقوله على لسان قوم سيدنا إبراهيم: (قالوا فأتوا به على أَعْيُنِ الناس لعلهم يَشْهَدُون) (الأنبياء ٦١) أى على مرأى منهم بحيث تتمكن صورته فى أعينهم تمكن الراكب من المركوب.

وقوله: (وإنه لتَنْزِيلُ ربِّ العالمين، نزلَ به الرُّوحُ الأمين، على قلبكَ لتكونَ من المُنْذِرين، بلسانٍ عربىٍّ مبينٍ) (الشعراء ١٩٢ - ١٩٦) فاللسان مجاز عن اللغة.

وقوله مخاطبًا الرسول: (فإنما يَسَّرناهُ بلسانكَ لتبشِّر به المتَّقين وتنْذِرَ به قومًا لدًّا) (مريم).

* * *

١٠ - الاشتقاق: كقوله تعالى: (كتب عليكم القِتالُ وهو كرْهٌ لكم، وعَسَى أن تكْرَهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم، وعسى أن تحِبُّوا شيئًا وهو شرٌّ لكم والله يَعْلمُ وأنْتم لا تعلمون) (البقرة ٢١٦).

فالقتال مكروه لدى النفس لما فيه من مفارقة الأوطان، وتعريض الجسد للهلاك والمال للضياع، ولشدة كراهية القتال ورد التعبير عنه بلفظ المصدر «كره» بدلا من «مكروه» وفى هذا بيان لأثر القتال وشدة وطأته على النفوس حتى كأنه الكره بعينه. مجاز مرسل، وعلاقته الاشتقاق.

وفى التعبير المجازى، يدل على أن القرآن الكريم لا يتجاهل الفطرة البشرية ولا ينكر مشقة هذه الفريضة، ولكنه يعالج الأمور من جانب آخر، فمن الفرائض ما هو شاق مرير، ولكن حكمته تهون مشقته وتسيغ مرارته، وصدق الله العظيم: (وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم).

---

(١) المتشابه ٣٨١، بلاغة القرآن فى آثار القاضى عبد الجبار ٣٢١.

وقوله تعالى : (إِذْ تَسْتَغِيثُون ربكم فاستَجاب لكم أَنِّ مُمِدُّكم بألف من الملائكة مرْدِفين، وما جعَلَه الله إلَّا بُشْرَى ولِتَطْمئن به قلوبُكم) (الأنفال ١٠).

فأقيم المصدر «البشرى» مقام اسم المفعول «المبشَّر به» مبالغة وكأن الإمداد هو البشرى ذاتها لأهميتها وشدة احتياجهم إليها، وقد عد هذا الإمام السيوطى[1] من أنواع المجاز المرسل الذى علاقته إقامة صيغة مقام أخرى - الاشتقاق -.

ويقول تعالى فى وصف اليهود مخاطبًا المسلمين : (لأنْتمْ أَشدُّ رهْبَةً فى صُدُورهم من الله) (الحشر ١٣)، فعبر عنه بالرهبة عن «المرهوبية»، مبالغة فى توفر الرهبة لديهم من المسلمين حتى لكأنهم الرهبة نفسها، وفى «صدورهم» مجاز مرسل علاقته المحلية.

ومنه قوله تعالى : (فإذا لقِيتمُ الذين كفروا فَضَرْبَ الرِّقَاب حتَّى إِذَا أَثْخَنْتموهم فشدُّوا الوَثَاق فإمَّا مَنًّا بعْدُ وإمَّا فِدَاءً حتَّى تضعَ الحربُ أَوْزَارَها) (محمد ٣).

فقد عبر عن الفعل بالمصدر، والأصل «فاضربوا الرقاب»، ففيه مع الاختصار معنى التوكيد.

وفى «الأوزار» مجاز مرسل علاقته الآلية، وفى التعبير بالأوزار إشعار بكراهية الإسلام للحرب فهى ذات أثقال وأعباء جسام ولا تأتى إلا بالخراب والدمار، وليس المراد إنهاء الحرب فقط، وإنما المراد كسر حدة العدو والقضاء على قوته الحربية حتى لا تسول له نفسه بالتمرد والعصيان.

١١ - المجاورة : كقوله تعالى : (وإنْ كنْتمُ مَرْضَى أو على سفَرٍ أو جاءَ أحدٌ منكم من الغَائِطِ أوْ لامَستم النِّساء فلم تجدُوا ماءً فتيمَّموا صعيدًا طيِّبًا) (المائدة ٢٦) أطلق الغائط على فضلة الإنسان، لأن الغائط بمعنى : الأرض الغائرة العميقة، يدفع فيها الإنسان الفضلات بحيث لا يراها أحد، ولما كثرت مجاورة الفضلة لها أطلقت عليها تأدبًا.

ومن ذلك إطلاق لفظ «الراوية» على البعير الذى يحمل الماء، والراوية فى

(١) الإتقان للسيوطى ج٢/٣٨.

الأصل هى : الوعاء الذى يكون فيه الماء ويحمل على البعير، فتطلق الراوية على البعير لعلاقة المجاورة، كقول أبى النجم :

تَمْشى من الرِّدَّة مَشْىَ الحُفَّل مَشْىَ الرَّوَايا بالمزادِ الأثْقَلِ[1]

ومنه قول عنترة :

فشككْتُ بالرُّمح الأصَمِّ ثيابَه ليس الكريمُ على القَنَا بمحرَّم

فالمراد من الثياب القلب - مجاز مرسل لعلاقة المجاورة[2].

وكذلك قول الاعشى :

وكأسًا شربتُ على لَذَّةٍ وأُخْرى تَداوَيْتُ منها بها

فالكأس مجاز عن الشراب - مجاز مرسل.

والمجاز الواحد قد يكون له أكثر من علاقة، ويلاحظ ذلك فى علاقة الآلية والمجاورة، فيمكن أن يكون كل منهما من قبيل إطلاق المحل وإرادة الحال.

* * *

وسمى ذلك مجازًا مرسلا لأنه أُرسل - أى أُطلق - عن التقييد بعلاقة واحدة إذ له عدة علاقات، أو لأنه أُرسل عن دعوى الاتحاد المطلوبة فى الاستعارة، إذ ليس العلاقة فيه بين المعنيين المشابهة حتى يدعى اتحادهما.

وإنما لم يسم استعارة، مع أن اللفظ فيه منقول ومستعار من معناه الأصلى إلى المعنى المراد، كما فى قولنا، أمطرت السماء نباتًا، فقد ادعينا أن المسبب - النبات - عين السبب - المطر - كما ادعينا فى الاستعارة أن محمدًا عين الأسد، وكل ما بينهم من فرق أن الاستعارة علاقتها مطلق مشابهة، أما فى المجاز المرسل فهى مشابهة

---

(١) المفضليات ٧٦٩، الردة : مكان، الحفل : السحب المليئة بالماء، الروايا جمع راوية وهى المزادة التى يحمل فيها الماء، وهى سقاء من ثلاثة جلود تجمع أطرافها ليكثر ما تحمله من الماء والتاء للمبالغة وتطلق على ما استقى عليه من بعير أو دابة، مجاز مرسل لعلاقة المجاورة.

(٢) ولا يكفى مطلق التجاور، بل لابد من أن يكون هناك تلازم بين الجار ومجاوره، فالمجاورة الموقوتة غير محققة للغرض البلاغى، بل المراد : المجاورة الثابتة التى تتحقق معه إدراك المجاور بمجاوره - كما فى هذه الشواهد.

السبب للمسبب، أو عكسه، أو مشابهة كل لجزء أو عكسه - إلخ والظاهر أن هذه التسمية اصطلاح من البيانيين تفرقة بين نوعين من المجاز مختلفى العلاقة[١].

* * *

وأما أول من وضع مصطلح [المجاز المرسل]، فالأمر فيه شيء من عدم الوضوح، فالإمام عبد القاهر وضع فى أواخر كتابه [أسرار البلاغة] الذى حققه العلامة محمد رشيد رضا فصلا تحت عنوان:[٢]

«هذا كلام فى ذكر المجاز، وفى بيان معناه، وحقيقته، وفيه بيان المنقول والمشترك، والمجاز المرسل وعلاقته».

فهذا العنوان يوحى بأن الإمام عبد القاهر هو الذى وضع هذا المصطلح، إذ لا توجد قبله هذه التسمية، غير أنه بالبحث تحت هذا العنوان نجد مادة هذا المجاز ولكنه لم يسمه هذه التسمية فى أثناء الشرح، فاستعمال هذا المصطلح فى عنوان الفصل فقط يثير الشكوك.

ألا يمكن أن يكون المحقق المرحوم محمد رشيد رضا هو الذى وضع هذا العنوان لما رآه مناسبا للمضمون - كما فعل فى كتاب [دلائل الإعجاز] إذ وضع تحته [فى علم المعانى]، وكذلك فعل فى كتاب [أسرار البلاغة] أن وضع تحته «فى علم البيان»؟

وبالرجوع إلى النسخة التى حققها وشرحها المرحوم أحمد مصطفى المراغى وبمقابلتها مع النسخة الأولى وجد أن العنوان فى النسختين واحد.

وفى نسخة ثالثة تحقيق المستشرق [هلموت ريتر] ط استامبول وزارة المعارف سنة ١٩٥٤م وجد العنوان فى صلب الصفحة:[٣].

«هذا كلام فى ذكر المجاز، وفى بيان معناه، وحقيقته» ثم زاد المحقق فى الهامش

---

(١) شروح التلخيص جـ٤/٢٨ وما بعدها.

(٢) أسرار البلاغة ٣١٦.

(٣) أسرار البلاغة تحقيق هـ - ريتر ص٣٦٥.

ما وجده فى نسخة أخرى رمز لها بحرف M

«وفيه بيان المنقول والمشترك والمجاز المرسل وعلاقته».

وكل هذه الدلائل ترجح أن مصطلح [المجاز المرسل] من وضع الإمام عبد القاهر.

ولكن لماذا لم يستعمل هذا المصطلح عند كل من الإمام الرازى الذى لخص كتابى عبد القاهر، والزمخشرى الذى طبق آراءه فى تفسيره، والسكاكى الذى تم فى كتابه عملية التقعيد؟

وعلى أية حال فإن هذا المصطلح ظهر بوضوح عند القزوينى وشروح التلخيص.

وقد ذكر القدماء أنواع المجاز المرسل لكنهم لم يسموه، ومنهم الفراء الذى قال فى قوله تعالى: (فَلْيدعُ ناديه) (العلق ١٧) العرب تقول: النادى يشهدون عليك والمجلس[١] وأشار الآمدى[٢] إلى بعض أنواعه أيضا، فقال فى قول الشاعر:

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

أراد: إذا سقط المطر رعيناه، أى رعينا النبات الذى يكون عنه، ولهذا سمى الغيث [ندى]، لأنه عن الندى يكون، وقالوا: ما به طِرق - أى ما به قوة، والطِّرْق الشحم، فوضعوه موضع القوة، لأن القوة عنه تكون، وقولهم، للمزادة راوية، وإنما الراوية البعير الذى يسقى عليه الماء، فسمى الوعاء الذى يحمله باسمه، ومن ذلك [الخَفْض] متاع البيت، فسمى البعير الذى يحمله خفضا، وكل هذه الأنواع التى ذكرها تعود إلى السببية أو المجاورة.

---

(١) معانى القرآن جـ٣/٢٧٩.

(٢) الموازنة جـ١١ ٣٥، ٣٦.

بلاغة المجاز المرسل

المجاز المرسل – ككل مجاز – يوسع اللغة، كما يساعد على الافتنان فى التعبير. وتدعو إليه المبالغة فى المعنى، والإيجاز فى العبارة، كما فى قوله تعالى: (يَجْعَلون أصابِعَهم فى آذانِهِمْ من الصَّواعِقِ حَذرَ الموت) فقد عبر بالأصابع بدلا من أطرافها، إشعارًا بشدة فزع المنافقين لدرجة أنهم يدسون الإصبع كلها اتقاء لذلك.

وقوله تعالى: (وآتوا اليَتامَى أمْوالهم)، عبر باليتامى – وهم فى الحقيقة راشدون – وفى ذلك إشارة إلى وجوب المسارعة بدفع أموالهم إليهم، وكأن اسم اليتيم باق فيهم لم يفارقهم، فهذه الصفة تزيد الشفقه عليه وتدعو الولى إلى دفع المال إليه كاملا.

ويقول معاوية بن مالك – وهو شاعر جاهلى عم لبيد بن ربيعة:

إذا نَزَل السماءُ بأرضِ قوم ... رَعَيْنَاهُ وإن كانُوا غِضَابا

فالسماء: المراد منها المطر، وقد أعاد الشاعر الضمير على السماء بمعناها المجازى وهو النبات، ففى البيت مجازان، استعمال السماء فى الغيث، واستعمال الغيث فى النبات، وعلاقة الأول المحلية أو المجاورة، والثانى السببية.

والبدوى حينما يرى المطر يأتى من السماء، وأنه ما من مرة إلا ويكون المطر من جهتها اقترن فى ذهنه صورتاهما، فلا يرى إحداهما إلا ويرى الأخرى، عندئذ ساغ له أن يقول: إذا نزل السماء – أى المطر – لا تجاهه إلى السماء التى هى محل المطر أو مجاورة له.

ومثله فى «رعيناه» – أى الغيث – فالضمير عائد على السماء بمعناها المجازى – وهو الغيث – فلما كان البدوى يرى أن الغيث سبب هام فى وجود النبات، وليس له فى ظاهر الحال سبب آخر، اقترن فى ذهنه صورة السبب والمسبب، ولما

كان لا يرى أحدهما إلا رأى الآخر، عندئذ ساغ له أن يقول : رعيناه - أى رعينا الغيث - مشيدًا بقيمة هذا السبب الذى بلغت مرتبة المسبب، وفى ذلك ما فيه من بيان أهمية الغيث وقيمته.

وكما جازت تلك الصورة يجوز العكس فيقال : أقبل النبات - أى الغيث - لأن الاتجاه إلى النبات المرتبط وجوده بوجود الغيث، وكأن الفارق الزمنى بين نزول المطر وظهور النبات قد ألغى من الحساب، والمقبل نباتا وليس مطرًا، وفى هذا ما يدل على مدى اللهفة والتعلق بالمسبب.

والإيجاز والاختصار ظاهر فى هذا المجاز فـ«رعينا الغيث» أوجز من «رعينا النبات الذى سببه الغيث»، وأقبل النبات، أوجز من «أقبل المطر المسبب عنه النبات».

وحينما نقرأ قوله تعالى : ﴿يَأَيُّها الذين آمنوا لا تَتَّخِذوا بِطَانَةً من دُونكمْ لا يَألُونَكمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّم، قَدْ بَدَتْ البَغْضَاء من أَفواهِهِم وَمَا تُخْفِى صُدُورهم أَكْبَرُ﴾ (آل عمران ١١٨).

فى تلك الآية مجازان مرسلان :

الأول : «قد بَدَتِ البغْضاءُ من أفواههم»، فالمجاز فى لفظ «البغضاء» مجاز عن الكلمات الدالة على الكراهية، لأن البغضاء معنى من المعانى المكنونة فى القلوب، وهى لا تبدو ولا تظهر من الأفواه، وإنما الذى يبدو منها هو الكلام المترتب على البغضاء، فقد أطلق السبب - وهو البغضاء - وأريد المسبب - وهو الكلام الدال على الكراهية، والعلاقة السببية، والقرينة لفظية «بدت» و «من أفواههم».

وبلاغة المجاز : هو المبالغة فى الكلام الدال على العداوة، وتصويره بصورة البغضاء، للإشعار بأن الذى بدا من أفواههم هو ذات البغضاء على الرغم من محاولتهم إخفاءها فى صدورهم، وذلك دليل على أنها قد تمكنت من قلوبهم، وملأت نفوسهم، حتى أبت إلا أن تفيض، فتنحدر من أفواههم...، فكأنه قيل : قد بدت الكلمات الدالة على الكراهية من أفواههم، لأن سببها وهو البغضاء قد ملأ قلوبهم.. وذلك هو معنى قول البيانيين :

إن المجاز كدعوى الشيء بالبينة والبرهان - لأنه يؤكد المعنى ويقرره.

وفى هذا المجاز تصوير المسبب بصورة السبب وإطلاق اسمه عليه، وفى ذلك تنفير أى تنفير من اتخاذ مثل هؤلاء بطانة.

والإيجاز ظاهر فى التعبير المجازى، فبالمقارنة بين الحقيقة وهى: قد بدت الكلمات الدالة على الكراهية من أفواههم وبين المجاز، وهو: قد بدت البغضاء من أفواههم، ندرك ذلك.

الثانى: «وما تُخفِى صُدورهم أكبر»، فالمجاز فى لفظ «صدورهم» مجـاز عن القلوب، لأن القلوب مجمع الأضغان ومحل الأحقاد، فقد أطلق المحل - وهو الصدور - وأريد الحال فيها - وهو القلوب - والعلاقة المحلية، والقرينة حالية.

فالمجاز أكد المعنى وقواه، فكأنه قيل: إن هذه القلوب قد تضخمت بما فيها من الكراهية، لأنها فاضت على الصدور فملأتها، وفى هذا بيان: كون المجاز دعوى الشيء بالبينة والبرهان.

وفى المجاز هذا صَوَّر الحال بصورة المحل وإطلاق اسمه عليه، وفى ذلك تنبيه على شدة كراهيتهم للمسلمين، وتحذير من الانخداع بهم.

وأما الإيجاز فهو أمر غلبى - فى المجاز المرسل - فالصدور كالقلوب.

فالمجاز المرسل يؤدى الفوائد التالية:

١ - تأكيد المعنى المجازى المراد، وتقريره فى النفوس، لما فيه من دعوى الشيء بالبينة والبرهان.

٢ - تصويره للمعنى المجازى المراد خير تصوير وأدقه.

٣ - تأدية المعنى المجازى المراد بألفاظ أقل مما تؤديه الحقيقة، وذلك فى الغالب[1].

* * *

(١) انظر فى ذلك البلاغة التطبيقية ٢٦٦.

ونلحظ أن الأساس النفسي للمجاز المرسل هو «تداعي المعاني» إذ أن هذا المجاز يسوغه التلازم الذهني، فالسبب والمسبب متلازمان ذهناً وزماناً ومكاناً، وكذلك الكل والجزء، والحال والمحل وهكذا.

* * *

الاستعارة
لمحة عن تطور لفظ «الاستعارة»

الاستعارة مأخوذة من الاستعارة الحقيقية، وهي : نقل الشيء من حيازة فرد إلى فرد آخر، وقد نقل علماء البيان هذا الاسم من حقيقته إلى المجاز بالاستعارة، وهي نقل اللفظ من معنى عرف به في اللغة إلى معنى آخر لم يعرف.

يقول العلوي[١] : «وإنما لقب هذا النوع من المجاز بالاستعارة أخذاً لها من الاستعارة الحقيقية، لأن الواحد منا يستعير من غيره رداءاً ليلبسه، ومثل هذا لا يقع إلا من شخصين بينهما معرفة ومعاملة، فتقتضي تلك المعرفة استعارة أحدهما من الآخر، فإن لم يكن بينهما معرفة بوجه من الوجوه فلا يستعير أحدهما من الآخر من أجل الانقطاع، وهذا الحكم جار في الاستعارة المجازية، فإنك لا تستعير أحد اللفظين للآخر إلا بواسطة التعارف المعنوي، كما أن أحد الشخصين لا يستعير من الآخر إلا بواسطة المعرفة بينهما».

* * *

ومن استقراءِ ما أثر عن علماءِ البيان نرى - فيما نعلم - أن أول من سبق إليها وأطلق عليها اسم الاستعارة هو أبو عمرو بن العلاء «ت ١٥٤ هـ». قال ابن رشيق[٢] وكان أبو عمرو بن العلاء لا يرى أن لأحد مثل هذه العبارة - يقصد قول ذي الرمة :

---

(١) الطراز جـ ١/١٩٨.

(٢) العمدة ج ١ / ١٨١.

أقامتْ به حتى ذَوَى العودُ والْتَوَى   ولَفَّ الثريَّا فى مُلاءَته الفجرُ

ويقول : ألا ترى كيف صير له ملاءة، ولا ملاءة له، وإنما استعار له هذه اللفظة.

وقال أبو عبيدة «ت ٢٠٧هـ» فى قول الفرزدق :

لا قومَ أكرمُ من تميمٍ إذا غَدَتْ   عُوذُ النساءِ يُسَقْنَ كالآجال

عوذ النساءِ : هن اللاتى معهن أولادهن، والأصل فى ذلك عوذ الإبل التى معها أولادها، فنقلته العرب إلى النساءِ، وهذا من المستعار، وقد تفعل العرب ذلك كثيراً[1]، وذلك دون بيان أو تقنين لا صطلاحها البلاغى، إلا أنه ألمح لبيان أركانها.

ويقول الباقلانى[2] فى معرض تعليقه على قول الشاعر :

* قيَّد الحسنُ عليه الحَدَقَا *

وذكر الأصمعى «ت ٢١٦ هـ» وأبو عبيدة وحماد «ت ١٥٥ هـ» وقبلهم أبو عمرو أنه أحسن فى هذه اللفظة، وأنه أتبع فيها فلم يُلحق، وذكروه فى باب الاستعارة البليغة.

لكن أول مَن عَرَّفها كفن بلاغى هو الجاحظ «ت ٢٥٥ هـ». فقد عرفها واستشهد عليها، يقول بعد أن يورد هذه الأبيات :

يا دَارُ قَدْ غيَّرها بِلاَها   كأنما بِقَلَمٍ مَحَاها
أخْرَبَها عمرانُ مَنْ بناها   وكَرُّ مُمْساها على مَغْناها
وطَفِقَتْ سحابةٌ تَغْشاها   تَبْكى على عِرَاصِها عَيْناهَا[3]

---

(١) النقائض جـ١/٢٧٥، والعوذ : جمع عائذ وهى الناقة التى قوى ولدها، الآجال : القَرق من البقر والظباء، واحدها : إجل.

(٢) إعجاز القرآن ٧٠.

(٣) أخربها عمران من بناها : إذا بقى الرجل فى داره نقص عمرها، لأن الأيام مؤثرة فى الأشياء بالنقص والبلى، فمدة بقائه فيها وإقامته بها أبلت منها الأيام.

يقول : ممساها : يعنى مساءها، المغانى، المنازل التى كان بها أهلوها، طفقت : ظلت، العرصة : المكان ليس به بناء، وجعل المطر بكاء على سبيل الاستعارة وتسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه[١].

فاصطلاح الاستعارة ورد أول ما ورد عند الجاحظ فى تعليقه على تلك الأبيات، وهو لم يضعها تحت أى علم من علوم البلاغة التى عرفت فيما بعد، وهذا التعريف ساذج غير محدد، فهو لا يمنع المجاز المرسل - مثلا - إذ هو تسمية الشيء باسم غيره.

وظل معنى «الاستعارة» يترد على ألسنة العلماء والنقاد بعد الجاحظ، كابن قتيبة «ت ٢٧٦ هـ»، والمبرد «ت ٢٨٥ هـ»، وثعلب «ت ٢٩١ هـ»، وقدامة «ت ٣٣٧ هـ». والقاضى الجرجانى «ت ٣٦٦ هـ» والرمانى «ت ٣٨٤ هـ» وأبى هلال «ت ٣٩٥ هـ»، وابن رشيق «ت ٤٦٣ هـ»، وابن سنان «٤٦٦ هـ» حتى جاء عبد القاهر «ت ٤٧١ هـ» فكان من أدقهم فى تعريفها فقال : «الاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره، وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه»[٢]، وقدم بحثها على التشبيه والتمثيل لأنه يحلها بين فنون القول مكانة رفيعة.

وفى بحوث هؤلاء ظل يتطور مفهومها ومدلولها دون أن يبحثوها تحت «علم البيان»، حتى جاء السكاكى «ت ٦٢٦ هـ»، فتناول بحثها تحت «علم البيان». وكان هذا إيذانا بوضعها جزءاً من مباحث هذا العلم الذى جعله أحد العلوم الثلاثة «المعانى والبيان البديع»، وعلى يد السكاكى ومدرسته أخذت الاستعارة وضعها ومكانتها فى علم البيان، وإليك الشواهد للتوضيح :

---

(١) البيان والتبيين جـ١/١٥٢.

(٢) الدلائل ٥٣.

معنى الاستعارة
الاستعارة التصريحية والمكنية

١ - قال تعالى: (اهدنا الصراطَ المستقيم. صراطَ الذين أنْعمتْ عليهم) «الفاتحة ٦، ٧).

٢ - وقال: (كتابٌ أنزلناهُ إليكَ لِتخرجَ الناسَ من الظُّلُماتِ إلى النُّور) (إبراهيم ١).

٣ - وقال: (والشعراءُ يتَّبعهم الْغَاوُون، ألم تَرَ أنَّهم فى كل واد يَهِيمُون)[1] (الشعراءِ ١٤٤، ١٤٥).

٤ - وقال: (ولما سكت عن موسى الغضبُ أخذ الألواح وفى نسختها هدًى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) (الأعراف ١٥٤).

* * *

ففى الآية الأولى، استعير لفظ (الصراط المستقيم) للدين الحق، لتشابههما فى أن كلا منهما يوصل إلى المطلوب، والقرينة - حالية - فالله سبحانه لا يهدى إلى الطريق الحسى وإنما المراد الهداية إلى الدين الحق على التشبيه.

وإجراء الاستعارة يكون على هذه الصورة:

شبهنا الدين الحق بالطريق المستقيم، بجامع الهداية فى كل، ثم تنوسى التشبيه، وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل فى جنسه، ثم استعير

---

(١) حقيقة «يهيمون» يسيرون أو يخلطون، والاستعارة أبلغ لما فيه من البيان بالإخراج إلى ما يقع عليه الإدراك وهو الهيمان فى كل واد يعن له فيه الذهاب. ورجل هائم: متحير، فشبه حيهم لفول الشعر فى كل غرض ورغبتهم فى الذهاب فيه كل مذهب بالهيمان والتحير والذهاب على غير هدى.

المشبه به للمشبه على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية، وسميت تصريحية : لأن المشبه به مصرح به فى الكلام، وسميت أصلية : لأن الاستعارة فى اسم جامد، والقرينة حالية إذ المراد تصوير الدين الواضح بالطريق المستقيم.

وفى الآية الثانية : استعير لفظ «الظلمات» للضلال، لتشابههما فى عدم الاهتداء، ثم استعير لفظ «الظلمات» للضلال، وكذلك استعير لفظ «النور» للإيمان لتشابههما فى الهداية، وقد جمعت الظلمات إشارة إلى أن طرق الضلال كثيرة، وأفرد النور تنبيهاً إلى أن طريق الإيمان واحد.

والقرينة حالية، فالنبى لم يخرج الناس من ظلمات حقيقية إلى نور حقيقى، وإنما المراد : تشبيه الضلال بالظلمات والهدى بالنور.

ويقول الشريف الرضى فى الآية الثالثة : وهذه استعارة، والمراد بها - والله أعلم - أن الشعراء يذهبون فى أقوالهم المذاهب المختلفة، ويسلكون الطرق المتشعبة، وذلك كما يقول الرجل لصاحبه إذا كان مخالفاً له فى رأى أو مباعداً له فى كلام : أنا فى واد وأنت فى واد، أى أنت ذاهب فى طريق، وأنا ذاهب فى طريق، ومثل ذلك قولهم : فلان يهب مع كل ريح، ويطير بكل جناح، إذا كان تابعاً لكل قائد، ومجيبا لكل ناعق.

وقيل : إن معنى ذلك : تصرف الشاعر فى وجوه الكلام من مدح، وذم، وعتب، وغزل، ونسيب، ورثاء، وتشبيب، فشبهت هذه الأقسام من الكلام بالأودية المتشعبة، والسبل المختلفة.

ووصف الشعراء بالهيمان، فيه فرط مبالغة فى صفتهم بالذهاب فى أقطارها، والإبعاد فى غاياتها، لأن قوله سبحانه : «يهيمون» أبلغ فى هذا المعنى من قوله : «يسعَوْن، أو يسيرون»، ومع ذلك فالهيمان صفة من صفات من لا مسكة له، ولا رجاحة معه، وهى مخالفة لصفات ذى الحكم الرزين والعقل الرصين[1].

«واستعير لفظ الأودية» للمقاصد والفنون الشعرية، وخص الاستعارة بـ«الأودية» دون الطرق والمسالك، لأن المعانى الشعرية تستخرج بالفكرة

(١) القرآن بين الحقيقة والمجاز والإعجاز ٢٩.

والروية، وفيها خفاء وغموض، فلهذا كانت الأودية أليق بالاستعارة[1]، والقرينة على أن - واد - استعارة هى : لفظ الشعراء.

وفى الآية الرابعة وصف الغضب بالسكوت وهذا لا يجوز على الحقيقة، وإنما يكون على المجاز، فقد شبه الغضب بإنسان وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو السكوت، وإسناد السكوت إلى الغضب هو قرينة الاستعارة.

وبلاغة الاستعارة فى الشواهد السابقة تكمن فى تمثيل ما ليس بمرئى حتى يصير مشاهداً مرئيًا، فينتقل السامع من السماع إلى حد المشاهدة والعيان، وذلك أقوى فى التأثير، وأبلغ فى البيان.

ومن الشواهد السابقة نرى أن للاستعارة أركاناً ثلاثة :

المستعار له - وهو المشبه، والمستعار منه - وهو المشبه به، والمستعار - وهو اللفظ المستعار، وإذا كنا قد علمنا أن التشبيه له أركان أربعة : المشبه، المشبه به، الوجه، الأداة، فالاستعارة لا بد فيها من حذف الأداة والوجه وأحد طرفى التشبيه - المشبه أو المشبه به - وهى فى الشواهد الثلاثة الأولى حذف المشبه واستعير المشبه به للمشبه ويسمى ذلك استعارة تصريحية.

فالاستعارة التصريحية : اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له، لعلاقة المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى.

أما فى الآية الرابعة فقد حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه، ويسمى ذلك : استعارة مكنية.

فالاستعارة من حيث ذكر أحد طرفيها تنقسم إلى تصريحية ومكنية.

وهذه التسمية قائمة على طبيعة النقل والإعارة، إذ قد يكون النقل بين شيئين موجودين فينقل الاسم مما وضع له أولا إلى غير ما هو له، كقولهم : رأيت أسدا، إذ جعلوا اسم الأسد لما ليس بأسد.

(١) الطراز جـ١/٢١٤، المثل السائر جـ٢/٩٧.

وقد يراد بالنقل إضافة الاسم لما لا تصح إضافته إليه كقول الشاعر:

وغَداةِ رِيحٍ قد كَشَفْتُ وقِرَّةٍ إذْ أصبحتْ بِيَدِ الشّمالِ زِمامُها

فقد أضاف لفظ «اليد» وهى الجارحة لما لا يصح أن يكون له يد وهو «الشمال».

ففى الاستعارة الأولى «تجعل للشيء الشيء ليس به، وفى الثانية، تجعل للشيء الشيء ليس له»[١]

وتسمية الاستعارة بالتصريحية من وضع الإمام الرازى[٢].

الاستعارة التصريحية
أصلية وتبعية

المتتبع لأساليب الاستعارة التصريحية يرى أن اللفظ المستعار يدور فيها على ما يأتى:

١ - قد يكون اسماً جامداً - سواء كان اسم عين يصلح - بأصل وضعه - لأن يصدق على كثير، مثل: أسد، بدر، بحر، أو اسم عين يصلح - بعد التأويل فيه - لأن يصدق على كثير، مثل: حاتم، سحبان، ماذر[٣]، أو اسم معنى يصلح لأن يصدق على كثير مثل: الفهم الكتابة، الجلوس.

فإذا كان اللفظ المستعار من أحد هذه الأنواع الثلاثة سميت الاستعارة «أصلية»، إذ المشبه به استعير للمشبه دون أن تتوسط لفظة أخرى لإجراء هذه الاستعارة.

---

(١) دلائل الإعجاز ٥٣.

(٢) انظر نهاية الإيجاز ٨٩، البلاغة تطور وتاريخ ٣٠٨.

(٣) سحبان: علم شخص، لكن تؤول فيه فجعل اسم جنس موضوع لمطلق ذات متصفة بالفصاحة، ومثله: حاتم، وماذر، وباقل، وقس.

٢ - وقد يكون اللفظ المستعارة من الأفعال - ماضياً، أو مضارعاً، أو أمراً - أو من المشتقات منها، أو من الحروف، وتسمى - حينئذ الاستعارة «تبعية»، إذ الاستعارة فى الأفعال تابعة للاستعارة فى المصدر. فهى تنقسم باعتبار اللفظ المستعار إلى «أصلية وتبعية».

* * *

أمثلة للاستعارة الأصلية

١ - قال تعالى على لسان سيدنا لوط : (قال لو أنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أوْ آوِى إلى رُكنٍ شديدٍ) (هود ٨٠)، جواب «لو» محذوف والمعنى : لو أن لى بكم قوة لفعلت بكم وصنعت، أو لَوْ قَوِيتُ عليكم بنفسى، أو آويت إلى قوى أستند إليه فيحمينى منكم، فأصل الأركان للبنيان، فشبه المُعين الشديد بالركن فى القوة ثم استعير المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية. والاستعارة أبلغ لأن الركن يُحس، والمعين الذى يمثل القوة لا يحس.

وقوله : (وقَدْ مَكَروا مَكْرَهُم وعند الله مَكْرُهم وإن كان مكْرُهم لِتزولَ منه الجبال) (إبراهيم ٤٦)، يقول العلوى : «إنما تكون استعارة على قراءة من قرأ لِتزولَ» بالنصب، على تقدير «إنْ» بمعنى «ما»، والمعنى : وما كان مكرهم لتزول منه الجبال، واستعار «الجبال» لما أتى به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من المعجزات الباهرة، والأعلام الواضحة النيرة على نبوته، والمعنى : وما كان خَذْعُهم وتكذيبهم لتزول منه هذه الأمور المستقرة الثابتة التى هى كالجبال فى الرسوخ والاستقرار»[1].

والاستعارة فى الموضعين تصريحية، لأن المشبه به مصرح به، أصلية، لأن الاستعارة فى اسم جامد.

---

(١) فأما على قراءة «لتزولُ» بالرفع فلا وجه للاستعارة فيه للجبال بل تكون باقية على حقيقتها «انظر الطراز جـ١/١٣١، والمثل السائر جـ٢/٩٦».

وهذه مجموعة من الآيات القرآنية التى فيها استعارة أصلية كشف عنها الرمانى وبين فى كل منها المعنى الحقيقى، والمجازى، والجامع بينهما، والسر البلاغى فى التعبير بالاستعارة دون الحقيقة، كشف عن كل ذلك بطريقة فريدة لم يسبقه فيها سابق.

يقول: فى قوله تعالى فى شأن غزوة بدر: (وإذْ يَعِدُكمُ الله إحْدى الطَّائفَتَيْنِ أنَّها لكم وتَوَدُّونَ أنَّ غيرَ ذَاتِ الشَّوكَةِ تكونُ لكم) (الأنفال ٧).

لفظ «الشوكة» مستعار، وهو أبلغ، وحقيقته السلاح، فذكر الحد الذى يقع به المخافة... وإذا كان السلاح يشمل ما له حد وما ليس له حد، فشوكة السلاح هى التى تبقى.

وقوله: (وإذا أنْعَمْنَا على الإنسان أعْرَضَ ونَأى بجَانبه، وإذا مسَّه الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عريض) (فصلت ٥١).

«عريض» هنا مستعار، وحقيقته كثير، والاستعارة أبلغ لأنه أظهر بوقوع الحاسة عليه.

وقوله تعالى حكاية عن سيدنا عيسىَ عليه السلام: (قال عيسَى ابنُ مرْيمَ اللَّهمَّ ربَّنا أنْزلْ علَيْنا مائدةً من السَّماء تكونُ لنا عِيداً) (المائدة ١١٤).

حقيقته تكون لنا ذات سرور، والاستعارة أبلغ، لما للإحالة فيه على ما قد جرت العادة بمقدار السرور به.

وقوله: (فأذَّنَ مُؤذِّنٌ بينهم أنْ لعنةُ الله على الظالمين، الذين يَصُدُّون عن سبيل الله ويَبْغُونَها عِوَجاً) (الأعراف ٤٤، ٤٥).

«العوج» هنا مستعار، وحقيقته خطأ، والاستعارة أبلغ لما فيه من البيان بالإحاطة على ما يقع عليه الإحساس من العدول عن الاستقامة بالاعوجاج.

وقوله: (يأيُّها النَّبى إنا أرسلناك شاهداً ومُبَشِّراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذْنه وسراجاً منيراً) (الأحزاب ٤٥، ٤٦).

« السراج » هنا مستعار، وحقيقته مُبَيِّنا، والاستعارة أبلغ، للإحالة على ما يظهر بالحاسة »[١].

وقوله (حم، والكتابِ المبين، إنَّا جعلناهُ قرآناً عربياً لعلكم تَعْقِلون، وإنَّه فى أمِّ الكتابِ لدَيْنَا لعليٌّ حَكيم) (الزخرف ١ - ٤).

حقيقته « أصل الكتاب » فاستعير لفظ « الأم » للأصل، لأن الأولاد تنشأ من الأم كما تنشأ الفروع من الأصول، وحكمة ذلك تمثيل ما ليس بمرئى حتى يصير مرئيا، فينتقل السامع من حد السماع إلى حد العيان وذلك أبلغ فى البيان[٢].

ومن هذا القبيل قوله تعالى : (وما يستَوِى البَحْران هَذا عذب فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وهذَا مِلْحٌ أجاج) (فاطر ١٢) فضرب الله مثال البحرين للمؤمن والكافر، والحديث عنهما مطوى فى تضاعيف الكلام.

وسميت الاستعارة هنا أصلية لأن الاستعارة تجرى فيها بطريق الأصالة والاستقلال من غير أن تتوقف على استعارة أخرى تنبنى عليها.

أمثلة للاستعارة التبعية

(أ) من الأفعال :

قال تعالى : (أوَمَنْ كان مَيْتًا فأحْيَيْنَاه وجعَلْنا له نوراً يَمْشى به فى االناس كمنْ مَثَلُه فى الظُّلُمَاتِ ليس بِخَارج منها) (الأنعام ١٢٢).

حقيقة الكلام : أو من كان ضالا فهديناه، لكن الأسلوب القرآنى عدل عن لفظ « ضالا » إلى لفظ « ميتا » ولفظ « ميت » فى الآية أبلغ من الحقيقة إذ تصور « الضال » بالميت، وتنقل ما ليس بمرئى حتى يصير مشاهدا محسوسا، وذلك أقوى فى التأثير، وأبلغ فى البيان. « استعارة تصريحية أصلية »، وقد سبق أمثال لها.

---

(١) النكت ٨٨ - ٩٣.

(٢) البرهان ج٣/٤٣٣، وأم الكتاب : هو اللوح المحفوظ كقوله تعالى : بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » وسمى أم الكتاب، لأنه الأصل الذى أثبتت فيه الكتب، منه تنقل وتستنسخ (راجع الكشاف جـ ١٨٦).

كما عدل عن لفظ «هديناه» إلى «أحييناه» وفى ذلك نقل المعنى العقلى إلى الصورة الحسية، وتعبير بالصورة المحسة عن المعنى الذهنى، وعدول عن التعبير المجرد إلى الرسم المصور.

وإجراء الاستعارة يكون على النحو التالى :

شبهت الهداية بالإحياء، بجامع ترتب المنافع، فى كل، ثم تنوسى التشبيه، وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل فى جنسه، ثم استعير المشبه به للمشبه، ثم اشتق من الإحياء «أحيا». بمعنى «هدى» على طريق الاستعارة التصريحية التبعية، والقرينة حالية يدل عليها سياق الآية، فليس المراد من «أحييناه» أوجدنا فيه الحياة، بل المراد هديناه.

٢ - وقال : (وآيَةٌ لهم الليلُ نَسْلَخُ منه النهارَ فإذَا هُمْ مُظْلِمون) (يس ٣٧).

حقيقة الكلام : وآية لهم الليل نخرج منه النهارَ، لكن الأسلوب القرآنى عدل عن لفظ «نخرج» إلى لفظ «نسلخ» وهو أبلغ، لأن السلخ إخراج الشىء مما لا بسه وعسر إخراجه لالتحامه به.

فقد شبه إزالة ضوء النهار عن المكان الذى فيه ظلمة الليل، بكشط الجلد من الشاة أو نحوها، بجامع ما يترتب على كل منهما من ظهور شىء كان خافياً، فبكشط الجلد يظهر لحم الشاة، وبغروب الشمس تظهر الظلمة التى هى الأصل، والنور طارىء عليها يسترها بضوئه، ثم تنوسى التشبيه، واستعير المشبه به للمشبه، ثم اشتق من «انسلخ» نسلخ بمعنى نزيل - استعارة تصريحية تبعية - والقرينة إيقاع السلخ على النهار[1].

٣ - وقال : (فاصْدَعْ بما تُؤمَرُ وأعْرِضْ عن المشركين) (الحجر ٩٤).

حقيقته : فبلغ ما تؤمر به، والاستعارة أبلغ من الحقيقة، لأن الصدع بالأمر لابد له من تأثير كتأثير صدع الزجاجة، والتبليغ قد يصعب حتى لا يكون له تأثير فيصير بمنزلة ما لم يقع، والمعنى الذى يجمعهما هو الإيصال، إلا أن الإيصال الذى

(١) البلاغة التطبيقية. ١٣١.

له نفاذ وتأثير كصدع الزجاجة أبلغ.

فقد شبه التبليغ بالصدع بجامع التأثير فى كل، ثم استعير الصدع للتبليغ، ثم اشتق من الصدع بمعنى «التبليغ» اصدع بمعنى بلِّغ - استعارة تصريحية تبعية، والقرينة هنا الجار والمجرور «بما تؤمر».

وسميت الاستعارة فى الفعل، وفى الصفات المشتقة تبعية لأنها تابعة لاستعارة تسبقها فى المصدر الذى يؤخذ منه الفعل أو الصفة - كما بيناه -.

وهذه مجموعة من الآيات القرآنية، وردت فيها الاستعارت فى الأفعال، كشف عنها الرمانى وبين المعنى الحقيقى والمجازى والجامع بينهما، وفَضْل المجاز على الحقيقة[1].

٤ - وقوله: (بل نَقْذِفُ بالحَقِّ على الباطلِ فَيَدْمَغه فإذَا هو زَاهِقٌ) (الأنبياء ١٨).

فالقذف والدمغ هنا مستعار، وهو أبلغ، وحقيقته: بل نورد الحق على الباطل فيذهب، وإنما كانت الاستعارة أبلغ، لأن فى القذف» دليلا على القهر، لأنك إذا قلت: قذف به إليه، فإنما معناه: ألقاه إليه على جهة الإكراه والقهر، فالحق يلقى على الباطل فيزيله على جهة القهر والاضطرار لا على جهة الشك والارتياب، و «يدمغه» أبلغ من «يذهبه» لما فى «يدمغه» من التأثير فهو أظهر فى النكاية وأعلى فى تأثير القوة.

«فكلمة القذف» توحى بهذه القوة التى يهبط بها الحق على الباطل، وكلمة «يدمغه» توحى بتلك المعركة التى تنشب بين الحق والباطل حتى تصيب رأسه وتحطمه فلا يلبث أن يموت[2].

فالحق كقذيفة مصوبة تصيب الباطل فتزيله من أساسه.

٥ - وقوله: (ربنا أفْرِغْ علينا صبراً، وثَبِّتْ أقْدامَنَا) (البقرة ٢٥٠).

---

(١) النكت ٨٨ - ٩٣.

(٢) من بلاغة القرآن ٢١٨.

«أفرغ» مستعار، وحقيقة : افعل بنا صبراً، وأفرغ أبلغ منه، لأن فى الإفراغ اتساعاً مع بيان. «ومن الدقة القرآنية استخدام الألفاظ المستعارة، إنه استخدم كلمة «أفرغ» وهى توحى باللين والرفق عند حديثه عن الصبر وهو من رحمته، فإذا جاء إلى العذاب استخدم كلمة «صب» فقال : (صَبَّ عليهم ربُّك سَوْطَ عَذَاب) (الفجر ١٣) وهى مؤذنة بالشدة والقوة معاً[١]».

٦ - وقوله : (وتركْنَا بعضَهم يومَئذ يموجُ فى بعضٍ، ونُفخَ فى الصُّور فجمَعْنَاهمْ جمعاً) (الكهف ٩٩). أصل «الموج» للماء، وحقيقته : تخليط بعضهم ببعض، والاستعارة أبلغ، لأن قوة الماء فى الاختلاط أعظم.

«فكلمة «يموج» لا تقف عن استعارتها لمعنى الاضطراب، بل إنها تصور للخيال هذا الجمع الحاشد الذى لا تدرك العين مداه، حتى صار هذا الحشد الزاخر كبحر ترى العين منه ما تراه فى البحر الزاخر من حركة وتموج واضطراب، ولا تأتى كلمة «تموج» إلا موحية بهذا المعنى ودالة عليه»[٢].

٧ - وقوله : (أمْ حسِبْتُم أن تَدْخُلوا الجنةَ ولَمَّا يأتِكمْ مَثَلُ الذين خَلوْا من قبلكم، مسَّتْهم البأساءُ والضرَّاءُ، وزُلْزِلُوا حتى يقولَ الرسولُ والذين آمنوا معَهُ، مَتَى نصرُ الله) (البقرة ٢١٤).

وهذا مستعار، «وزلزلوا» أبلغ من كل لفظ كان يعبر به عن غلظ ما نالهم كالإزعاج - مثلا - إلا أن الزلزلة أبلغ وأشد.

٨ - وقوله : (والليلِ إذَا عَسْعَسَ، والصُّبح إذا تَنَفَّسَ، إنه لقولُ رسولٍ كريمٍ)(التكوير ١٧ - ١٩).

و «تنفس» هنا مستعار، وحقيقته إذا بدأ انتشاره، وتنفس أبلغ منه، ومعنى الابتداء فيهما، إلا أنه فى النَّفَس أبلغ لما فيه من الترويح عن النفس.

٩ - وقوله : (والذى نَزَّل من السَّماء ماء بِقَدَرٍ فأنْشَرْنَا به بلدةً ميْتاً) (الزخرف ١١).

---

(١) المصدر نفسه ٢١٩، ٢٢٠.

(٢) من بلاغة القرآن ٢١٨.

«والنشر» هنا مستعار، وحقيقته أظهرنا به النبات والأشجار والثمار، فكانت كمن أحييناه بعد إماتته، فكأنه قيل: أحيينا به بلدة ميتا من قولك: «أنشر الله الموتى فنشروا»، وهذه الاستعارة أبلغ من الحقيقة لتضمنها معنى المبالغة ما ليس فى أظْهَرْنا.

١٠ - وقوله: (سنَفْرُغُ لكم أيُّها الثَّقَلان) (الرحمن ٣١).

والله عز وجل لا يشغله شأن عن شأن ولكن هذا أبلغ فى الوعيد، وحقيقته: سنعمد إليكم بعد طول الترك والإمهال، إلا أنه لما كان الذى يعمد إلى شىء قد يُقَصِّر فيه لشغله بغيره معه، وكان الفارغ له هو البالغ فى الغالب - كما يجرى به التعارف- دللنا بذلك على المبالغة من الجهة التى هى أعرف عندنا لما كانت بهذه المنزلة، ليقع الزجر بالمبالغة التى هى أعرف عند العامة والخاصة موقع الحكمة. والشواهد الماضية كلها من الاستعارة فى الفعل بالنظر إلى حدثه.

* * *

وقد تكون الاستعارة فى الفعل بالنظر إلى زمانه مثل:

١ - قوله تعالى: (ونَادَى أصحابُ النَّار أصحابَ الجنَّةِ أنْ أفِيضُوا عَلَيْنَا من الماء أوْ مِمَّا رزَقكُمُ الله، قالوا إنَّ الله حرَّمَهُما على الكافرين) (الأعراف ٥٠).

هذه الآية ترسم مشهداً من مشاهد يوم القيامة، ترسم صورة حية للخزى الذى يصيب الكفار يومئذ، فكان مقتضى الظاهر أن يقال: «ويُنَادى» بدلا من «نادى»، لكن القرآن الكريم عبر عن أحداث المستقبل تلك بكلمة «نَادى، وهذا التعبير أبلغ، فقد صور ما يقع فى المستقبل كأنه حدث بالفعل، وكأن النداء من أصحاب النار وقع، وفى ذلك ما ينبههم إلى أنهم لا ينبغى أن ينكروا البعث، فوقائعه حاصلة وواقعة فعلا وإنكاره غير مقبول.

فشبه النداء فى المستقبل بالنداء فى الماضى، بجامع تحقق الوقوع فى كل، ثم استعير النداء فى الماضى للنداء فى المستقبل، ثم اشتق من النداء «نادى» بمعنى «ينادى» - استعارة تصريحية تبعية - والقرينة: إسناد الفعل لأصحاب النار - وهذا بالقطع سيكون فى المستقبل.

٢ - وقوله : (أتَى أمْرُ الله فلاَ تستَعْجِلُوه) (النحل١).

فمعنى «أتى» يأتى على نحو الآية السابقة.

ومثلها قوله تعالى : (ونُفِخَ فى الصُّورِ فَصِعَق مَنْ فى السموات ومن فى الأرْض) (الزمر ٦٨).

وإذا كان يعبر عن المضارع بالماضى لتحقق الوقوع، كذلك يعبر عن الماضى بالمضارع لاستحضار صورته، لتكون ماثلة فى النفوس حاضرة فى الخيال، مثل :

٣ - قوله تعالى : (والله الذى أرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فسقْنَاه إلى بلد ميِّت، فأحْيَينا به الأرضَ بعد مَوْتها) (فاطر ٩).

فالآية تتحدث عن ظواهر طبيعية وقعت، فكان مقتضى الظاهر أن يقال : فأثارت» كالأفعال بعدها، لكن تعبير القرآن جاء بالمضارع قصداً إلى استحضار صورة الإثارة وأن تكون حاضرة فى الذهن ماثلة فى الخيال فيكون ذلك أدعى إلى العظة والاعتبار.

فشبه الإثار فى الماضى بالإثارة فى الحال، بجامع حصول الصورة فى كل، ثم استعيرت الإثارة فى الحال للإثارة فى الماضى، ثم اشتق منه «تثير» بمعنى «أثارت»، والقرينة حالية.

٤ - ومثلها قوله : (أفكلَّما جاءكم رسولٌ بما لا تَهْوى أنْفُسكم استَكْبرتُم فَفريقًا كذَّبتُمْ وفريقاً تقْتُلون) (البقرة ٨٧).

فالآية تحكى الصورة البشعة التى كانت اليهود تصنعها فى الأنبياء، فكان مقتضى الظاهر أن يقال : «وفريقاً قَتَلتم» لكن تعبير القرآن أتى بالمضارع، لا ستحضار تلك الصورة الأليمة فى النفوس تقبيحاً لها وتنفيراً منها، والاستعارة فيها كالآية السابقة.

(ب) فى المشتقات :

١ - قال تعالى : (وكمْ قَصَمْنَا من قَرْيةٍ كانتْ ظالمةً وأنشأْنَا. . . . قالوا : ياوَيْلَنا

إنا كنَّا ظَالِمِين، فما زَالتْ تلك دَعْواهم حتَّى جعلْنَاهم حصيداً خَامِدِين) (الأنبياء ١١ - ١٥).

والمعنى : جعل الله هؤلاء القوم هلكى كالنبات المحصود الهامد، وأصل الخمود للنار، وحقيقته : هادئين، والاستعارة أبلغ، لأن خمود النار أقوى فى الدلالة على الهلاك، على حد قولهم : طُفىء فلان كما يُطفأ السراج.

فشبه هلاك القوم وثباتهم فى أماكنهم، بخمود النار، بجامع عدم الحركة فى كل، ثم تنوسى التشبيه وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به، ثم استعير المشبه به للمشبه، ثم اشتق من الخمود خامد على طريق الاستعارة التصريحية التبعية، وفى «حصيد» استعارة تبعية أيضاً.

٢ - وقوله : (فأمَّا ثمود فأُهْلِكوا بالطَّاغِيَةِ، وأما عادٌ فأهلكُوا بِرِيح صَرْصَرٍ عاتِيَة) (الحاقة ٥ - ٦).

الطاغية، حقيقتها : عالية، والتعبير بالطاغية أبلغ، لأنها علو مع قهر وغلبة، وعاتية، حقيقتها : شديدة، والتعبير بالعتو أبلغ، لأن فيه من الشدة مع القهر والغلبة.

وقوله : (وفى عادٍ إذ أرْسلْنا عليهم الريحَ العَقِيمَ، ما تَذَرُ من شَيْءٍ أتَتْ علَيه إلاَّ جعلتْهُ كالرَّميم) (الذاريات ٤١، ٤٢). العقيم : مستعار للريح، وحقيقته : ريح لا يأتى بها سحاب غيث، والاستعارة أبلغ، لأن حال العقيم أظهر من حال الريح التى لا تأتى بمطر.

٣ - وقوله : (ونُفخ فى الصُّور فإذا هُمْ من الأجْداثِ إلى ربِّهم يَنْسِلون، قالوا : يا وَيْلَنا مَنْ بعثنا مِن مَرْقدنا) (يس ٥١، ٥٢).

أصل الرقاد النوم[1]، وحقيقته : الموت، والاستعارة أبلغ، لأن النوم فى نظرهم أظهر من الموت، والاستيقاظ أظهر من الإحياء بعد الموت، لأن الواحد تتكرر عليه النوم، واليقظة، وليس كذلك الموت والحياة[2].

(١) لقوله تعالى (وتحسبهم أيقاظا وهم رقود).

(٢) هذا على أن «مرقد» اسم مكان فيكون مشتقاً، أما إذا كان «مصدراً ميمياً» فالاستعارة تكون أصلية.

٤ - وقوله : (وجعَلنَا اللَّيلَ والنهارَ آيتين، فمحوْنَا آيةَ اللَّيل، وجعلْنَا آيَة النهار مُبْصِرةً) (الإسراء ١٢).

فمبصرة هنا «استعارة» وحقيقتها : مضيئة، وهى أبلغ، لأنه أدل على موضع النعمة لأنه يكشف عن وجه المنفعة.

(جـ) فى الحروف :

١ - قال تعالى : «وأوْحَيْنَا إلى أُمِّ موسَى أنْ أرْضِعيه... فالْتَقَطه آلُ فرعَون ليكونَ لهم عدُوًّا وحَزَناً، إن فِرْعون وهَامَان وجُنودَهما كانُوا خاطئين، وقالتِ امرأة فِرْعَوْن قُرَة عَيْنٍ لِي ولَكَ، لا تَقْتُلوه عَسى أنْ ينفعَنَا أوْ نتخِذَه ولداً) (القصص ٧-٩).

«فاللام فى «ليكون» هى لام «كى» التى معناها التعليل مثل : جئتك لتكرمنى، ولكن التعليل فيها وارد على طريق المجاز دون الحقيقة، لأنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدوًّا، ولكن المحبة والتبنى، غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته، شبه بالداعى الذى يفعل الفاعلُ الفعل لأجله. وهو الإكرام الذى هو نتيجة المجىء.... وتحريره أن اللام هذه حكمها حكم الأسد، حيث استعيرت لما يشبه التعليل، كما يستعار الأسد لما يشبه الأسد[1].

فالذى حمل آل فرعون على التقاط موسى - عليه السلام - هو النفع أو التبنى - بدليل قوله تعالى على لسان امرأة فرعون : (لا تَقْتلوه عسَى أن ينفعنا أو نتَّخِذَه ولداً) فلو أن رجاءهم قد تحقق لقيل : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم نافعاً وابناً، وحينئذ تكون اللام قد استعملت فى معناها الحقيقى.

لكن الواقع الذى حدث هو أنه كان لهم عدوًّا وحزناً، حيث ترتبت العداوة والحزن على الالتقاط، وبذلك صارت اللام مستعملة فى غير ما وضعت له، لعلاقة المشابهة، فهى استعارة.

---

(١) الكشاف حـ ٣٠٩/٣.

وإجراء الاستعارة فيها على النحو التالى :

شبهت العداوة والحزن المترتبان على الالتقاط فى الواقع، بالعلة الحقيقية التى هى الانتفاع أو التبنى، بجامع مطلق ترتب شيء على شيء، ثم استعيرت اللام من معناها الحقيقى وهو ترتب العلة الحقيقية على الالتقاط لترتب غير العلة الحقيقية عليه، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، والقرينة : دخول اللام على العداوة والحزن.

٢ - وقال تعالى حاكيًا مقالة فرعون للسحرة عند إيمانهم بموسى : (فلأُقطِّعَنَّ أيْدِيَكُم وأرجُلَكم من خِلافٍ ولأُصَلِّبنكم فى جُذُوع النَّخل) (طه ٧١).

فلفظ «فى» موضوع لتلبس الظرف بالمظروف، مثل : النقود فى الخزينة، فإذا كان ما بعد «فى» يصلح لأن يكون ظرفًا حقيقيًا لما قبلها كانت «فى» مستعملة فيما وضعت له، أما إذا كان ما بعدها لا يصلح لأن يكون ظرفًا لما قبلها فتكون مستعملة فى غير ماوضعت له، ولفظ «فى» فى الآية مابعدها لايصلح أن يكون ظرفًا، فجذع النخلة لايصلح أن يكون ظرفا للمصلوبين، لكن لما كانت الجذوع متمكنة من المصلوبين تمكن الظرف من المظروف ساغ استعمالها فيه على سبيل الاستعارة.

وقد شاع هذا التجوز فى الشعر، فقال سويد اليشكرى :

هم صَلَبُوا العَبْدِىَّ فى جِذْع نَخْلةٍ فلاعطَسَتْ شَيبانُ إلا بأجْدعَا[1]

وقال عنترة :

بطَلٌ كأن ثيابه فى سَرْحَةٍ يُحْذَى نِعَال السِّبْتِ، ليس بتَوأم[2]

---

(١) الأجدع : مقطوع الأنف، فهو يدعو على شيبان بذلك لأنهم صلبوا العبدى، (انظر هذا البيت وما بعده فى «شرح الأشمونى» على ألفية ابن مالك تحقيق محيى الدين جـ ٣/٢٦١ ط الحلبى.

(٢) السرحة، الشجرة العظيمة، السبت : الجلد المدبوغ ولم يتجرد من شعره، وهو لبس الملوك، ويريد بذلك أنها طيبة الريح، ليس بتوأم، لم يزاحمه أحد فى بطن أمه فيكون ضعيفًا، فهو بطل مديد القامة كأن ثيابه قد ألبست شجرة عظيمة من طول قامته واستواء خلقته وهو يتخذ النعال من الجلود المدبوغة، ولم تحمله أمه مع غيره.

فالفاء فى البيتين بمعنى «على» على الاستعارة.

٣ - وقال تعالى حكاية عن الكفار يوم القيامة (فهَلْ لنا من شُفعَاءَ فيشَفعُوا لَنا، أوْ نُرَدُّ فنعملَ غيرَ الذى كنَّا نعْمل)؟ (الأعراف ٥٣).

فـ «هل» معناها الحقيقى : طلب الفهم، واستعملت فى الآية فى «التمنى» على طريق الاستعارة، لسر بلاغى : وهو إنزال المتمنى البعيد الحصول فى صورة الممكن القريب الوقوع، إظهارا لكمال العناية به والرغبة فى وقوعه.

فقد شبه مطلق التمنى بمطلق الاستفهام بجامع الطلب فى كل، ثم استعير «هل» الموضوعة للاستفهام للتمنى، والقرينة حالية، لأن الكفار لا يستفهمون فهم يعلمون يقينًا بأنه ليس لهم شفعاء، وإنما هم يتمنون أن يكون لهم ذلك.

ومما سبق يتضح معنى كونها تبعية، أنها تابعة لتشبيه مدخول الحرف الآن بما كان حقه أن يدخل عليه[1].

وقد اتجه أبو يعقوب المغربى وجهة أخرى فى الاستعارة بالحرف وجعلها من قبيل الاستعارة بالكناية[2] فيشبه مدخول الحرف الآن بما كان حقه أن يدخل عليه، ثم نستعير المشبه به للمشبه، ثم نحذف المشبه به ونرمز إليه بشىء من لوازمه وهو الحرف.

وإجراؤها على هذه الطريقة كالآتى :

شبهت العداوة والحزن بالمحبة والتبنى ثم استعيرت المحبة والتبنى للعداوة والحزن ثم حذفت المحبة والتبنى ودل عليهما بشىء من لوازمهما وهو لام العلة على طريقة الاستعارة المكنية، وإثبات اللازم تخييل، وهو قرينة المكنية.

* * *

(١) وما جرينا عليه هو أحد طرق ثلاثة فى الاستعارة فى الحرف وهو رأى الزمخشرى فى كشافه وتبعه الخطيب فى الإيضاح.

(٢) مواهب الفتاح، ضمن شروح التلخيص جـ ٤/١٢٣.

ولقد أفاض العلوى وابن الأثير[١] فى بيان اللطائف الدقيقة، والأسرار الغامضة لوضع حرف مكان آخر وعرض لذلك فى آيات من القرآن، فقال فى قوله تعالى :

٤ - (قل مَنْ يَرْزُقكُم من السمَّواتِ والأرْضِ، قُل الله، وإنَّا أوْ إيَّاكُمْ لَعَلى هُدًى أو فى ضَلَال مبين[٢]) (سبأ ٢٤).

فانظر إلى براعة هذا المعنى المقصود وجزالة هذا الانتظام بمخالفة موقعى هذين الحرفين، فإنه إنما خولف بينهما فى التلبس بالحق والباطل، والدخول فيهما، وذلك من جهة أن صاحب الحق كأنه لمزيد قوة أمره وظهور حُجَّته، وفرط استظهاره راكب لجواد يصرفه كيف شاء، ويركُضُه حيث أراد، فلأجل هذا جعل ما يختص به مُعدًّى بحرف «على» الدال على الاستعلاء، بخلاف صاحب الباطل فإنه لفشله، وفرطِ قلقه، وضعف حاله، كأنه ينغمس فى ظلام وموضع سافل لا يدرى أين يتوجه، ولا كيف يفعل، فلهذا كان الفعل المعلق بصاحبه مغدًّى بحرف الوعاء إشارة إلى ما ذكرناه. ويؤيد هذا ما ذكره الله تعالى فى سورة يوسف، حيث قال : (تَالله إنَّك لَفى ضَلالِكَ القديم) (يوسف ٩٥).

٥ - وقال فى قوله تعالى : (إنما الصَّدقاتُ للفقراءِ والمساكين والعاملين عليها والمؤلفةِ قلوبُهم وفى الرقاب والغارِمينَ وفى سبيل الله وابن السبيلِ) (التوبة ٦٠).

فهذه أصناف ثمانية جعل الله الصدقات مصروفة فيهم، لكونهم أهلا لها ومستحقين لصرفها، لكن الله تعالى خص المصارف الأربعة الأول باللام دلالة على الملك والأهلية للاستحقاق، وعدل عن اللام إلى حرف الوعاء فى الأصناف الأربعة الآخر، وما ذاك إلا للإيذان بأن أقدامهم أرسخ فى الاستحقاق للصدقة، وأعظم حاجة فى الافتقار، من حيث كان «فى» دالة على الوعاء، فنبه على أنهم أحقاء بأن

(١) الطراز جـ٢/٥٣، المثل السائر جـ٢/٢٤٠.

(٢) وفى الآية من أنواع البديع - تجاهل العارف. فالله ورسوله أعلم بمن على الهدى ولكن الآية جاءت على هذا السياق للتعريض بعدم هداهم، كما أنه جىء بالآية على هذا النحو من الإبهام ليكون سببًا فى بعث المشركين على التدبر والتأمل فى حال أنفسهم من فساد أحوالهم وغارات بعضهم على بعض وارتكاب الفواحش والمنكرات وحال الرسول ومن معه من اجتناب الفواحش المنكرات والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى إذا أمنعوا فى النظر علموا أن النبى والمؤمنين على هدى وأنهم على ضلالة فيبعثهم ذلك على الاهتداء بنور الإسلام.

توضع فيهم الصدقات كما يوضع الشيء فى الوعاء، وأن يُجْعلوا مَظِنة لها، وذلك لما فى فك الرقاب، وفى الغرم، من الخلاص عن الرق والدَّيْن اللذين اشتملان على النقص، وشغل القلب بالعبودية، والغرم، ثم تكرير الحرف فى قوله تعالى: (وفى سبيل الله) قرينةٌ مرجحة له على الرقاب والغارمين، وكان سياق الكلام يقتضى أن يقال: «وفى الرقاب والغارمين وسبيل الله وابن السبيل» فلما جيء بـ«فى» مرة ثانية وفصل بها «سبيل الله»، علم أن السبيل آكدُ فى الاستحقاق بالصرف فيه من أجل عمومه وشموله لجميع القربات الشرعية، والمصالح الدينية.

٦ - وقال فى قوله تعالى: (ولقد كرَّمْنا بَنِي آدمَ وحمَلْنَاهُم فى البَرِّ والبحرِ) (الإسراء ٧٠).

إنما أعرض عن ذكر حرف الاستعلاء وهو «على»، وعدل عنه إلى حرف الوعاء وهو «فى»، مع أن الظاهر هو العلو على الأرض والفلك، إعلامًا بأن حرف الوعاء أقعد وأمكن ها هنا من حرف الاستعلاء، لأن «على» تُشعر بالاستعلاء لا غير من غير تمكن واستقرار، و«فى» تشعر ها هنا بالاستقرار والتمكن، ومن حق ما يكون مستقرًّا فيه متمكنًا أن يكون مستعليًا له، فلما كانت «فى» تؤذن بالمعنيين جميعًا آثرها وعدل إليها وأعرض عن «على»، دلالة على المبالغة التى ذكرناها».

الاستعارة الوفاقية والعنادية

تنقسم الاستعارة باعتبار الطرفين إلى: وفاقية وعنادية.

فالوفاقية: ما يمكن اجتماع طرفيها فى شيء واحد، كقوله - ﷺ - «إن من البيان لسحرا» - فقد شبه الكلام الحسن بالسحر فى التأثير، والطرفان يمكن اجتماعهما فى شيء واحد - وهو الإنسان الساحر ذو البيان الحسن.

والعنادية: ما لا يمكن اجتماع طرفهما فى شيء واحد - كقوله عليه السلام - «ويل للأقماع» فقد شبه عليه السلام - آذانهم بالأقماع التى يفرغ فيها ضروب القول إفراغ المائعات، وهى عنادية لأن طرفيها - الآذان والأقماع - لا يمكن اجتماعهما.

ووقع النوعان فى قوله تعالى : (أَوَمَنْ كان مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وجَعلْنا له نُورًا يَمْشى به فى النَّاس كمنْ مَثَلُهُ فى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ منْها).

ومن الاستعارة العنادية الاستعارة التهكمية

الاستعارة التهكمية

نرى القرآن الكريم عند قصد التهكم والاستهزاء بقوم يؤثر استعمال أَلفاظ المدح فى نقائضها من الذم والإهانة فمثلا يقول تعالى فى عاقبة أهل الكفر والشرك : (وبَشِّر الذين كَفَروا بعذابٍ أليمٍ) (التوبة ٣)، فالبشارة[١] هى الإخبار بما يسر لكنها استعيرت للإنذار - وهو الإخبار بما يسيء - فنزل التضاد منزلة التناسب وشبه الإنذار بالتبشير بجامع السرور فى كل - تحقيقًا فى التبشير وتنزيلا فى الإنذار - ثم اشتق من التبشير بمعنى الإنذار بشر بمعنى أنذر - «استعارة تبعية تهكمية» وفى هذا استخفاف بعقولهم، وتعريض بقلة بصرهم، وسفه رأيهم».

وقوله تعالى : (إنَّ الذين كفروا وظَلَموا لم يَكُن الله لِيَغْفِرَ لهم ولا ليهْدِيَهم طَريقًا، إلا طريقَ جهَنَّم خالدين فيها أبدًا) (النساء ١٦٨، ١٦٩)، فالهداية هى الدلالة على المنافع، كطريق الجنة مثلا فى آية الفاتحة (اهدنا الصراط المستقيم) أو الثواب، كقوله تعالى : (والذين قُتِلُوا فى سبيلِ الله فلنْ يُضِلَّ أَعمالَهُمْ. سَيَهْدِيهم ويُصْلِحُ بَالهم ويُدْخلهُم الجنة عَرَّفَها لهم) (محمد ٤، ٥)، أما الطريق إلى النار والسوق إليه فليس من المنافع لكن القرآن آثر هذا الأسلوب لما أراد إهانتهم والتهكم بهم[٢].

فقد شبه سوقهم إلى طريقِ النار بعنف بالهداية، بجامع السرور، تحقيقًا فى

---

(١) جاءت مادة (البشارة) فى القرآن على سبيل الحقيقة فى ثمانين موضعا، وعلى سبيل المجاز فى خمسة مواضع وكان مرادًا بها الإنذار.

(٢) انظر تفصيل ذلك فى متشابه القرآن ٦٣، ٢١٥.

الهداية وتنزيلاً فى حشرهم فى جهنم تنزيلا للتضاد منزلة التناسب « استعارة تبعية تهكمية ».

ومثله قوله تعالى : (احْشُرُوا الذين ظَلَموا وأَزْوَاجَهم وما كانوا يَعْبُدون من دون الله فاهْدُوهم إلى صراط الجحيم) (الصافات ٢٢ ، ٢٣).

وقد صور الله إهانة قوم شعيب له واستهزائهم منه بهذا الأسلوب التهكمى الساخر فقال : (قالوا يا شُعَيْبُ أَصَلاَتُك تَأْمُرُك أن نَتْرُكَ ما يَعبد آباؤنا، أو أنْ نفعل فى أَمْوَالنا ما نَشَاء إنَّك لأَنت الحَلِيمُ الرَّشِيدُ) (هود ٨٧)، فاستعير الحلم والرشد للسفه والغى، لأن قصد قوم شعيب السخرية والاستهزاء.

كما آثر الله سبحانه هذا الأسلوب مع المسلمين الذين خُذِلُوا فى غزوة أحد، بعد أن عصوا الرسول، فتركوا مواقعهم وأبعدوا فى الأرض هربًا، والرسول فى آخرهم يناديهم بالثبات حتى وقف منهم من وقف، فجازاهم الله سبحانه على مخالفتهم أمر الرسول غمًّا بسبب ما أدخلوه على الرسول من الغم بعصيانهم له، وتمردهم على أوامره، فقال : (إذْ تُصْعِدُون ولا تَلْوُون على أحد والرسول يدْعُوكم فى أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكم غَمًّا بِغَمٍّ) (آل عمران ١٥٣)، فشبهت المجازاة بالإثابة على طريقة التهكم والاستهزاء[1].

وقد شاع هذا الأسلوب التهكمى الساخر عند العرب كقول عمرو بن معديكرب :

..... تَحِيَّـةُ بَيْنِهِم ضَـرْبٌ وَجِيـعُ

وقال كعب بن زهير :

صَبَحْنَـا الخَزْرَجِيَّـةَ مُرْهَفَـاتٍ أَبَـادَ ذَوِى أُرُومَتِهَـا ذَووهَـا[2]

---

(١) انظر المصدر السابق ١٦٨.

(٢) صبحنا : قالوا لهم : عم صباحاً، أو سقاه صبوحًا وهو شراب الصباح من اللبن الحليب، الخزرجية : نسبة إلى قبائل الخزرج، المرهفات : المرققات وهى السيوف الرقيقة، الأرومة : بفتح الهمزة ضمها الأصل، وضمير « أرومتها » يعود إلى الخزرجية، وضمير « ذووها » يعود إلى المرهفات.

فقد شبه الطعن فى الصباح بتحية الصباح أو شرب الصباح، بجامع المسرة فى كل بتنزيل التضاد منزلة التناسب «استعارة تهكمية تبعية.

وقد يسمى هذا النوع من الاستعارة «تمليحية»، ويختلف ذلك بحسب المقام فإن كان الغرض الحامل على استعمال اللفظ فى ضده الهزء والسخرية بالمقول فيه كانت تهكمية، وإن كان الغرض بسط السامعين وإزالة السآمة عنهم بوساطة الإتيان بشىء مستملح مستظرف كانت تمليحية.

الاستعارة المرشحة والمجردة والمطلقة

الاستعارة مبناها على تناسى التشبيه، وادعاء أن المشبه فرد من أفراد المشبه به، حتى كأن الموجود فى واقع الأمر المشبه به دون المشبه، فكل شىء يذكر فى الأسلوب الذى وقعت فيه الاستعارة يقوى هذا المعنى ويدعمه فهو يزيد فى قوة الاستعارة، وكل ما يضعف منه فهو يقلل من شأنها، وينقص من قيمتها.

ومن هنا تتنوع الاستعارة - باعتبار ذكر الملائم - لأحد طرفيها وعدم ذكره إلى ثلاثة أنواع: مرشحة، مجردة، مطلقة.

فالمرشحة: هى التى قرنت بما يلائم المستعار منه «المشبه به» زائدًا عن القرينة. كقوله تعالى: (أولئك الذين اشْتَرَوا الضَّلَالَةَ بالهُدَى فما رَبِحتْ تِجارتُهم وما كانوا مُهْتَدين) (البقرة ١٦)، ففى «اشتروا» استعارة تبعية، شبه اختيار الضلالة على الهدى بالشراء، بجمع ترك مرغوب عنه وأخذ مرغوب فيه، ثم استعير المشبه به للمشبه، واشتق من الشراء اشتروا بمعنى اختاروا، والقرينة: استحالة المبادلة الحقيقية بين الضلالة والهدى، وباستيفاء القرينة تمت الاستعارة[1].

---

(١) كما استعير فى الآية عدم الربح لعدم الثواب الأخروى، والتجارة استعيرت لاتخاذهم الضلالة بدلا من الهدى.

وقد ورد استعمال مادة (الشراء) فى القرآن الكريم فى خمسة وعشرين موضعا منها اثنتان على الحقيقة فى قوله تعالى: (وشَرَوْهُ بثَمنٍ بَخْس) (يوسف ٢٠) أى باعوه، فهى هنا بمعنى البيع، وقوله: (وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مَثْواه) (يوسف ٢١). أما قوله: (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليُضِل عن سبيل الله) (لقمان ٦) فمن قال: إن الشراء كان بإحضار أحاديث رستم وبهرام بالبدل النقدى فالشراء على الحقيقة، ومن قال: =

وقوله : (فما ربحت تجارتهم) جملة تناسب الاشتراء – وهو المشبه به – فتسمى «ترشيحًا» وسميت مرشحة : لأن الترشيح معناه التقوية، وذكر ملائم للمشبه به يبعدها عن الحقيقة، ويقوى فيها دعوى الاتحاد التى هى مبنى الاستعارة، وقد عدها ابن أبى الإصبع من أجَلّ الاستعارات[١].

وقد وصف الله هؤلاء القوم بعدم الاهتداء إلى طرق التجارة الرابحة، «فالمقصود من التجارة سلامة رأس المال مع حصول الربح، ولئن فات الربح فى صفقة فربما يتدارك فى صفقة أخرى لبقاء الأصل، وأما إتلاف الكل بالمرة فليس من باب التجارة قطعًا، فهؤلاء الذين كان رأس مالهم الهدى قد استبدلوا بها الضلالة فأضاعوا كلتا الطلبتين فبقوا خائبين خاسرين نائين عن طريق التجارة[٢]»، ومن الترشيح قول الشاعر :

يُنَازِعنِى رِدَائى عبدُ عمرو رُوَيْدَكَ ياأخا عمرِو بنِ بكر
لىَ الشَّطرُ الذى ملكَتْ يمِينى ودُونكَ فاعتجر منه بِشِطْر[٣]

فالشاعر استعار «الرداء» للسيف، بجامع الصيانة والحفظ، والقرينة حالية، لأن النزاع حول السيف لا حول الثوب، وقد ذكر الاعتجار – وهو ملائم للمشبه به «الرداء» – ترشيح للاستعارة– وهذه التسمية للاستعارة الترشيحية من وضع صاحب الكشاف عند تفسيرة للآية الكريمة : (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى. .) (البقرة ١٦).

* * *

=إن الشراء بمعنى استبدال أحاديث اللهو بالإيمان كان مجازًا.

وفى باقى الآيات استعملت مادة الشراء على المجاز، سواء كان بمعنى البيع كما فى قوله تعالى : (ولِبئس مَا شَرَوْا بِه أَنْفُسَهم) (البقرة ١٠٢) (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) البقرة ٢٠٧) أو بمعنى الشراء كهذه الآية، ولم ترد مرشحة إلا فى هذه الآية.

(١) تحرير التحبير ٩٩.

(٢) تفسير أبو السعود جـ ٣٨/١.

(٣) رويدك : اسم فعل بمعنى أمهل والكاف حرف خطاب، دونك : اسم فعل بمعنى خذ، اعتجر : من الاعتجار وهو لف الرأس بثوب ونحوه، والاعتجار على غير حقيقته إذ المراد ضربه على رأسه بالسيف، الشطر : النصف المراد به مقبض السيف، والشطر الآخر هو صدر السيف بغيبه فى صدر العدو، وفى رويدك التفات من الغيبة إلى الخطاب.

والمجردة : ما قرنت بما يلائم المستعار له «المشبه».

مثل قوله تعالى : (وضَربَ الله مثلاً قرْيةً كانت آمِنَة مُطمئنة يأْتيها رِزْقُها رَغَدًا من كل مَكانٍ، فكفَرَتْ بأَنْعُمُ الله، فأذاقها الله لِباس الجُوع والخوف بما كانوا يَصْنَعون) (النحل ١١٢).

فالاستعارة فى كلمة «لباس الجوع والخوف»، فقد شبه أثر الجوع والخوف - من النحافة والاصفرار والضعف - وضررهما المحيط بأهل القرية، باللباس، بجامع الإحاطة فى كل، ، والقرينة : هى إضافة اللباس إلى الجوع والخوف.

وقد قرنت الاستعارة بما يلائم المستعار له، وهو قوله «فأذاقها» فالمراد بالإذاقة : إصابة القوم وابتلاؤهم بآلام الجوع، وهذا ملائم للمستعار له.

واستعمال الإذاقة فى الإصابة استعارة جرت مجرى الحقائق لشيوعها فى البلايا والشدائد. . . ولَمَّا قال «فأذاقها»، لِمَ لَمْ يقل : «طَعْم الجوع والخوف»، ليلائم قوله «فأذاقها» حتى يكون الكلام ترشيحا ؟.

لأن الطعم وإن كان ملائمًا للإذاقة لكنه لو ذكره لما كان مقويًا لبيان اشتمال الجوع والخوف لهم وعموم أثرهما على جميع البدن، كما تعم الملابس وتغطى جميع البدن، فلا جرمّ حصل من لفظ «اللباس» المبالغة فى العموم والاشتمال.

ولو قال «فكساها الله لباس الجوع والخوف» لكان ترشيحًا[1] لكنه ببالغ فى شدة ما أصابهم بقوله : (فأذاقها) لأن الذوق أبلغ فى الإحساس وأدخل فى الإيلام من قوله «فكساها»[2].

فقد أوثر التعبير «بالإذاقة» - بالتجريد - مع أن الترشيح أبلغ[3]، لأن الإدراك

---

(١) التوشيح من الوشاح وهو الزينة فهى مقواة أو مزينة بما يلائم المشبه به، وقد سمى المرشحة بعض العلماء الموشحة.

(٢) الطراز جـ١/٢٣٦.

(٣) ينبغى أن يعلم أن ترشيح الاستعارة هو تقوية لها وحدها، فلا ينافى ذلك أن يكون التجريد أبلغ منه فى بعض الأحيان بالنسبة لجملة الكلام كما فى الآية (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) فقد اقتضى الكلام جملة التجريد وإن كان فى ذلك إنقاص لرتبة الاستعارة (أسرار البيان ١١٢).

بالذوق يستلزم الإدراك باللمس من غير عكس، فكان التعبير بالإذاقة إشعاراً بالإصابة بخلاف التعبير بالكسوة.

ومن التجريد قول البحترى:

يُؤدُّون التَّحيــة من بعيـدٍ   إلى قمرٍ من الإيوانِ بادِ[1]

فالقمر مستعار للممدوح، والقرينة: يؤدون التحية من بعيد، وقوله من الإيوان باد، تجريد إذ هو من ملائمات الممدوح – وهو المشبه.

وسميت مجردة لتجريدها عما يقويها لأن ذكر ملائم المشبه مضعف لتناسى التشبيه، ومبعد لدعوى اتحاد المشبه مع المشبه به، وبهذا يخلو من المبالغة وهذه التسمية للاستعارة التجريدية من وضع الإمام فخر الدين الرازى[2].

والمطلقة: هى التى لم تقرن بما يلائم المشبه أو المشبه به.

كقوله تعالى: (وما يُضِلُّ به إلاَّ الفاسقين الذين يَنْقُضُون عَهْد الله من بَعْدِ ميثَاقِه) (البقرة ٢٦، ٢٧).

فقد استعير العهد للحبل، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من روادفه، وهو النقض، وهو قرينة المكنية. ولم تقرن الاستعارة بما يلائم المشبه به أو المشبه.

وقوله: (وتركْنَا بعضَهم يومئذٍ يَمُوجُ فى بعض ونُفِخَ فى الصُّور فجمعْناهمْ جَمْعًا) (الكهف ٩٩).

فكلمة «يموج» استعارة للاضطراب والاختلاط الناشيء عن الحيرة، والقرينة: إسناد الفعل إلى الضمير العائد على بعضهم، ولم تقترن بما يلائم المشبه أو المشبه به.

وسميت مطلقة لأنها أطلقت عما يقويها أو يضعفها من ملائمات المشبه به أو المشبه.

(١) الإيوان: بناء ضخم ومنه إيوان كسرى.
(٢) البلاغة تطور وتاريخ ٢٨١.

وقد تقرن بما يلائم المشبه به والمشبه معًا، فتكون مطلقة أيضًا، كقول كثير عزة:

رمتْنى بسَهْمٍ رِيشُه الكُحْلُ لم يضِرْ ظَوَاهرَ جِلْدى، وهو للقلب جَارحُ

استعارة الشاعر لفظ «سهم» للنظر، وريشه: ترشيح لأنه من ملائمات المشبه به، من قولهم: راش السهم إذا ألصق الريش ليكون أحكم فى الرماية، والكحل: تجريد، لأنه من ملائمات المشبه، وقرينة الاستعارة حالية.

والترشيح والتجريد إنما يكون بعد تمام الاستعارة، وتمامها باستيفاء قرينتها.

* * *

والترشيح أقوى، ثم الإطلاق، ثم التجريد.

وذلك لأن الاستعارة - كما هو معلوم - مبنية على تناسى التشبيه ودعوى اتحاد المشبه به بالمشبه، فكل ما يؤكد هذا المعنى فهو يقوى الاستعارة، ولا شك أن ذكر المناسب للمشبه به يجعل حديث التشبيه بعيدًا من الأذهان، ويخيل أن المستعار مستعمل فى حقيقيته، لذلك كان الترشيح أقوى.

ويليه الإطلاق، لأنه ترك الاستعارة على حالها دون أن يذكر معها ما يقويها أو يضعفها.

أما التجريد، فهو عَوْدٌ إلى التشبيه، فبعد أن تمت الاستعارة عاد المتكلم يُذَكِّر بالتشبيه، فيذكر ما يناسبه، وذلك يضعف من شأن الاستعارة.

الاستعارة التمثيلية

قال تعالى فى شأن أهل الكتاب: (وإذْ أَخَذَ الله ميثاقَ الذين أُوتُوا الكتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا تكْتُمونه فنَبذُوه وَرَاء ظُهورهم، واشْتَرَوْا به ثمنًا قليلًا، فبئْسَ ما يَشْتَرون) (آل عمران ١٨٧).

حقيقة الكلام: تركوا الميثاق وأهملوه، ولكن «نبذوه وراء ظهورهم» أبلغ،

لما فيه من الإحالة على ما يتصور ويرى من الطرح والرمى الذى يدل على الإهمال والاحتقار، ففى الآية استعارة وليست من قبيل استعارة المفرد، بل من قبيل استعارة المركب.

فقد شبه هيئة من أخذ عليهم الميثاق، فأهملوه ولم يعتدوا به، بهيئة من بيده شىء تافه حقير فطرحه وراء ظهره، والجامع بينهما: وجود شىء يهمل احتقارًا لشأنه، ثم استعير المركب الموضوع للمشبه به للمشبه «استعارة تمثيلية»، والقرينة حالية، لأن التاركين للميثاق لم يطرحوا شيئًا وراء الظهر حقيقة.

ومن هنا ندرك أن الاستعارة التمثيلية هى:

اللفظ المركب المستعمل فى غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقى.

ومن شواهد الاستعارة التمثيلية

١ - قوله تعالى: (وما قدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِه، والأَرْضُ جميعًا قَبْضَته يومَ القيامة، والسموات مطوياتٌ بِيَمينه) (الزمر ٦٧)، وفى الآية تمثيلان:

(ا) شبه الأرض وهى تحت تصرف المولى سبحانه ورهن إرادته، بالشىء يكون فى قبضة الممسك به، فهو متمكن منه يصرفه كيف شاء، ثم حذف المشبه واستعير المشبه به للمشبه.

(ب) وشبّه السموات وهى تحت تصرفه وطوع مشيئته، بالشىء المطوى (كالكتاب مثلا) فى يمين منقاد له فهو يطويه وينشره كلما شاء، وخص اليمين لأنها أشرف اليدين وأقواهما، ثم حذف المشبه واستعير المشبه به للمشبه.

٢ - وقوله تعالى يصف أهوال يوم القيامة: (يَوم تَرَوْنَها تَذْهَل كلُّ مُرْضِعَةٍ عما أَرْضَعَت، وتضَعُ كل ذَاتِ حملٍ حَمْلَها، وتَرَى الناسَ سُكَارَى وما هم بسُكَارى، ولكنَّ عذابَ الله شديد) (الحج ٢).

فقد شبهت أحوال الآخرة وما فيها من أهوال وشدة تنسى المرء أعز ما عنده،

بهيئة المرضعة التى تذهل عن رضيعها، وذات الحمل التى تضع حملها، ثم استعير هيئة المشبه به للمشبه.

٣ - وقوله تعالى فى التنفير عن الغيبة : (أَيُحِبُّ أَحدُكم أَنْ يأْكُل لحْمَ أَخيه مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوه) (الحجرات ١٢).

شبهت الكراهية الحاصلة من تناول المرء عرض أخيه وذكره بما يكره، بالكراهية الحاصلة من أكل لحم أخيه الميت، ثم استعير هيئة المشبه به للمشبه.

٤ - وقوله تعالى : (بديع السموات والأرضِ وإذا قَضَى أمرًا فإنَّما يقولُ له : كنْ فيكون) (البقرة ١١٧).

فقضاء أى أمر من جانب الله سبحانه يكون من دون تراخ ومعاناة ومشقة، ويحدث فى أيسر مدة وأقل زمن، بمنزلة قول القائل للشىء كن فيكون، ثم استعير المشبه به للمشبه[١].

ومثل ذلك قوله تعالى : (والبلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُه بإذن رَبِّه والَّذى خَبُثَ لا يخرج إلا نَكِدا) (الأعراف ٥٨) فهو مثل للقلب السليم الذى يقبل الموعظة، والقلب القاسى الفاسق ينبو عن ذلك.

* * *

والأمثال السائرة كلها من قبيل الاستعارة التمثيلية، ويراعى المعنى الذى ورد فيه أولا، فيخاطب به المفرد والمثنى والجمع مذكرا أو مؤنثا من غير تغيير فى العبارة، ويشبَّه مضْرِبُه بمْوردِه[٢].

فيقال مثلا لقوم ضيَّعوا الفرصة من أنفسهم ثم جاءوا يطلبونها بعد : الصَّيفَ ضيَّعتِ اللَّبن، بتاءٍ مكسورة لأنه فى الأصل خطاب لامرأة.

شبه حال أولئك الذين ضيعوا الفرصة ثم جاءوا يطلبونها، بحال امرأة كانت متزوجة بأشيب غنى، فتركته، وتزوجت بشاب فقير - وكان ذلك صَيْفًا - ثم

(١) انظر بلاغة القرآن فى آثار القاضى عبد الجبار ٢٠٣ وما بعدها - للمؤلف.

(٢) مضرب المثل : ما استعمل فيه المثل أخيرًا، ومورده : ما استعمل فيه أولا.

عادت إلى زوجها الأول زمن الشتاء تطلب منه لبنا، بجامع العودة إلى طلب النافع بعد الانصراف عنه، ثم استعير هيئة المشبه به للمشبه، «استعارة تمثيلية».

ومثله «أحشفًا وسوءَ كِيلة»؟

شبه حال من يبيع شيئًا رديئًا مع نقص فى الوزن، بحال من يبيع تمرًا رديئًا مع نقص فى الكيل، بجامع أن كلا فيه ظلم، ثم استعير هيئة المشبه به للمشبه.

ويروى أن الوليد بن يزيد لما بويع بالخلافة، بلغه توقف مروان بن محمد فى البيعة، أرسل إليه الوليد يقول: أما بعد، فإنى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى، فإذا أتاك كتابى هذا، فاعتمد على أيهما شئت، والسلام.

وحقيقة الكلام: أراك متحيرًا فى أمرك مترددًا، فقد شبهت هيئة المتردد فى أمره بين الإقدام والإحجام بهيئة رجل قام ليعمل عملا، فتارة يعقد النية على العمل فيقدم رجلا، وتارة يعدل فيؤخر أخرى، بجامع التردد تارة والإحجام أخرى، ثم استعير هيئة المشبه به للمشبه.

وكتب سيدنا عثمان بن عفان إلى سيدنا على بن أبى طالب - رضى الله عنهما - حين أحاط به الثائرون فى داره: أما بعد، فإنه قد جاوز الماءُ الزُّبَى، وبلغ الحِزَامُ الطُّبْيَيْنْ[1]، وتجاوز الأمر بى قدره، وطمع فىّ من لا يدفع عن نفسه.

والمعنى فى خطاب سيدنا عثمان: أن الخطب بلغ نهايته والأمر جاوز حده، فقد شبهت الحال التى لا يمكن إصلاحه بحال الماء جاوز أعلى مكان، أو الحزام بلغ الطبيين بجامع مجاوزة الحد فى كل، ثم استعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه.

* * *

ومن الأمثال ماله مورد حقيقى: كمواعيد عرقوب، فى قول كعب بن زهير:

كانت مواعيدُ عرقوبٍ لها مثلا ... وما مواعيدُها إلَّا الأباطيلُ

---

(١) الزبى: جمع زبية - بضم الزاى - وهى مصيدة الأسد ولا تكون إلا فى رابية أو هضبة، الطبيين: يقال لموضع الأخلاف من السباع، والجمع: أطباء، واحدها طبى - بضم الطاء - وهى الضروع.

ومنها الخيال الممكن : وهو ما نسب الكلام والعمل فيه إلى عاقل، كما جاء فى أمثال لقمان أن صبيًّا كان يستحم فى نهر، ولم يكن يحسن السباحة، فأشرف على الغرق، فاستغاث برجل عابر فى الطريق، فأقبل عليه وجعل يلومه على نزوله إلى النهر، فقال الصبى : «يا هذا! خلِّصْنى من الموت، ثم لُمْنى!».

ومنها الخيال المستحيل : وهو ما جاء على ألسنة الحيوان والجماد للاعتبار به، كما فعل نصر بن منيع، وكان خارجًا على المأمون، فسير إليه جيشًا ظفر به، فلما مَثَل بين يدى المأمون أمر بضرب عنقه، فقال : يا أمير المؤمنين! أتسمع مثلا خطر على بالى؟ فقال قل : فأنشأ يقول :

زَعمُوا بأن صقْرًا صادَفَ مرَّة ... عصفورَ برٍّ ساقَه التَّقْديرُ
فَتكلَّم العصورُ تحت جَنَاحه ... والصقر منْقَضٌ عليه يَطير
إنِّى لِمثْلِك لا أَتِمُّ لقمةً ... ولئن شُويتُ فإنَّنى لحقير
فتهاون الصقرُ المُدِلُّ بصَيْده ... كرما وأَفْلَتَ ذلك العصفور

والرابع : الخيال المختلط من الممكن والمستحيل : وهو ما جمع بين الناطق وغيره - كحديث الحية والأخوين، فقد زعموا أن أخوين هبطا بغنمهما واديًا فيه حيةً تحميه، وبينما كان أحدهما يرعى غَنمه إذ نَهَشته الحية فقتلته فقال أخوه : والله ما فى الحياة خيرٌ بعده، ولأطلبَنَّ الحية - فلما لقيها، وهم بقتلها قالت : ألا ترى، إنى قتلته وندمت على ما كان منى، فهل لك فى الصلح، فأَدَعَك فى هذا الوادى آمنا، وأعطيك دية أخيك كل يوم دينارًا؟، فصالحها على ذلك، وحلفت له وحلف لها، ومازالت تعطيه حتى كثر ماله، فلما أحس الغنى قال : كيف ينفعنى هذا العيش، وأنا أرى قاتل أخى؟! فعمد إلى فأس فأحدَّها ثم انتظر، فلما مرت به ضربها، فشجَّها، وأخطأ مقتلها، فقطعت عنه الدينار، وتوعَّدَتْه، فخاف شرها، وقال : هل لَكِ أن نتعاهد على المودة كما كنا؟، فقالت : لا، لأنكَ كلما نظرتَ إلى قبر أخيك وجدتَ علىّ، وكلما ذكرتُ الشَّجَّة التى فى رأسى وجدتُ عليك[1].

* * *

(١) الموازنة بين الشعراء ٨٢.

وفى القرآن الكريم أمثال كثيرة لها موارد تصويرية مثل قوله تعالى : (إنَّا عَرَضْنَا الأمانةَ عَلَى السموات والأَرْضِ والجبال، فأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا، وأَشْفَقْنَ منها وحَمَلها الإنسان، إنه كان ظَلُومًا جهولاً) (الأحزاب ٧٢). فإنه لم يحصل عرض ولا إباء ولا إشفاق، وإنما المراد تصوير التكاليف وما فيها من المشقة، وتصوير الإنسان وما يغلب عليه من الغرور والجهل بحقائق الأشياء.

وكذلك قوله : (قل أَئِنَّكُمْ لتَكْفُرُونَ بالذى خَلَق الأَرضَ فى يَوْمَين وتجعلوُن لهُ أَندادًا، ذلك ربُّ العالَمين وجَعَل فيها رَوَاسىَ من فَوْقها وبَارَك فيها وقدَّرَ فيها أَقْواتَها فى أربعةِ أيام سواءً للسَّائلين ثمَّ اسْتَوى إلى السَّماءِ وهى دُخَانٌ فقالَ لَهَا وللأَرْض ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالتَا أَتَيْنَا طائعين) (فصلت ٩ - ١١)، فإن الغرض تصوير قدرة الله وماله من السلطان المطلق فى الأرض والسماء.

وقوله : (وجَعَلْنَا على قلوبهم أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وفى آذَانِهم وقْرًا) (الإسراء ٤٦) وقوله : (إنا جَعَلنا فى أعناقِهم أَغْلالاً فهِىَ إلى الاذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُون. وجَعلْنا من بَيْنْ أَيْديهِمْ سَدًا ومِنْ خَلْفِهِمْ سَدًا فأَغْشَيناهُم فهُمْ لا يُبْصِرون) (يس ٨، ٩) فهؤلاء لإعراضهم عن الدين، وإصرارهم على المخالفة لما جاء به الرسول، وبلوغ الغاية فى الصد والنكوص، ممثَّلون بحال من جُعل على قلبه كنان فهو لا يفقه ما يقال له، ولا يرعوى لقبوله، وبحال من ضرب بينه وبين مراده بسد من بين يديه ومن خلفه، فهو لا يهتدى إليه، ولا يمكنه الوصول إلى بغيته بحال.

* * *

«التمثيل» تسمية لقدامة.

التمثيل «الاستعارة التمثيلية» كان معروفًا عند العرب، وكثيرًا ما ذكر فى القرآن الكريم، والسنة الشريفة، والشعر، إلا أن التسمية الاصطلاحية تلك لم تظهر إلا على يد : قدامة بن جعفر «ت ٣٣٧ هـ» ، وابن المعتز «ت ٢٩٦ هـ» وإن مَثَّل له فقد أدرجه تحت اسم «التشبيه».

ويرى الدكتور إبراهيم سلامة أن «التمثيل» بهذه التسمية التى سماها قدامة

يونانى منقول. وأتى بما يثبت ذلك من نصوص أرسطو[١].

وقدامة يرى فى التمثيل أنه إبراز المعنى أو الفكرة للعيان، فالشاعر يريد أن يشير إلى معنى فيضع كلاما يدل على معنى آخر، وذلك المعنى الآخر، والكلام ينبئان عما أريد أن يشير إليه، مثال ذلك قول الرماح بن مَيادة:

ألم تَكُ فى يُمْنى يدَيْك جعلْتَنى فلا تجعلَنِّى بعدها فى شِمَالكا

فعدل عن أن يقول فى البيت: إنه كان عنده مقدَّما فلا يؤخره، أو مقرَّبًا فلا يبعده، أو مجتبى فلا يجتنبه، إلى أن قال: إنه كان فى يمنى يديه فلا يجعله فى اليسرى، ذهابًا نحو الأمر الذى قصد الإشارة إليه بلفظ ومعنى يجريان مجرى المثل له، وقَصْدَ الإغراب فى الدلالة، والإبداع فى المقالة.

ومنه قول يزيد بن مالك الغامدى:

فإن ضَبَحوا منا زأَرْنا فلم يكن شبيهًا بزَأْر الأُسد ضَبْحُ الثعالب[٢]

فقد أشار إلى قوتهم وضعف أعدائهم إشارة مستغربة لها من الموقع بالتمثيل ما لم يكن لو ذكر الشىء إليه بلفظه[٣].

وتلا العلماء قدامة فى ذلك حتى أتى عبد القاهر فعقب عليهم بما لا مزيد عليه.

بلاغة الاستعارة

عرفنا أن التشبيه تقوم بلاغته من حيث اللفظ على توكيده وحذف بعض أركانه، وأن أعلاه رتبة ما حذف منه الأداة والوجه. والاستعارة تبدأ حيث ينتهى التشبيه، إذ مبناها عليه، وتقوم على تناسيه وادعاءِ أن المشبه هو المشبه به نفسه، وكلما أوغلنا فى هذا التناسى كانت بلاغة الاستعارة، ولهذا كانت المرشحة أعلى

(١) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ٢١٩.

(٢) نقد الشعر ١٨٢ - ١٨٤.

(٣) ضبح الثعالب: صوته.

طبقة، وتليها المطلقة، ثم المجردة، وما ذلك إلا لأن المرشحة يذكر فيها ما يلائم المشبه به.

وإذا كان التشبيه أكثر ما يستعمل يكون لبيان المعنى وإيضاح الفكرة، فإن الاستعارة أكثر ما تكون، تستعمل فى القوة وشدة التأثير فى السامعين.

وتأثير الاستعارة فى العواطف والنفوس يعتمد - كالرسم والتصوير - على الخيال وعرض الصور والصفات والأعمال عرضًا حسيًا مجسمًا، ليرى القارئ فى ألفاظها من الألوان والمعانى ما يراه إذا هو نظر إلى رسم أو تبصر فى تمثال.

وذلك أن اللغة إنما وضعت فى الأصل للتعبير عن الحقائق والمسائل العقلية، فإذا ما أراد المتكلم اتخاذها لأداء ما فى نفسه من الانفعالات شعر بأنها دون ما فى باطنه من قوة العاطفة وحرارة الشعور، فالألفاظ دائمًا فى حالة قصور وعجز عن ملاحقة فيض المشاعر الإنسانية، لذلك يحاول اصطناع لغة أخرى تسمو إلى مستوى نفسه الثائرة، وتستطيع تصوير ما فيها من آثار القوة الوجدانية فيلجأ إلى الخيال وإلى الصورة التى تجسم المعانى، وتنقلها إلى درجة أرقى لتزداد جمالا.

والتصوير يندرج فى مظاهر متعددة بوسائل مختلفة، وقد توجد هذه المظاهر كلها مجتمعة فى نص واحد وقد نجد بعضها متفرقًا فى نصوص متعددة[1].

وأول مظهر للتصوير: إخراج اللفظ من دائرة المعنى المجرد إلى الصورة المحسوسة والمتخيلة.

والمظهر الثانى: تحويل الصورة من شكل صامت إلى منظر متحرك حى.

والمظهر الثالث: تضخيم هذا المنظر وتجسيمه حينما يكون الجو والمشهد يقتضيان ذلك.

ومن الوسائل إلى تحقيق هذه المظاهر الاستعارة.

يصور الله تعالى حالة المتكبرين المستعلين على الحق والكافرين الجانحين عن

(١) مباحث فى إعجاز القرآن ١٨٠.

الصراط السوى، فيقول: (إنا جعلنا فى أعْنَاقهم أغْلَالاً فَهِى إلى الأذْقَان فَهُم مُقْحَمُون، وجعلنا من بَيْن أيْدِيهم سَدًّا ومنْ خَلْفِهم سَدًّا فَأغْشَيانهم فهم لا يبصرون) (يس ٨، ٩).

فقد صور القرآن الكريم من لم ينفع معه المنطق ولم تؤثر فيه الدلائل والحجج، وظل عاكفًا على الغى والضلال، بإنسان التف حول عنقه غُلٌّ عريض مرتفع إلى الذقن حتى جعل رأسه صاعدًا إلى الأعلى لا يتحرك، ثم هو وقف فى مكانه قد سد عليه بجدران غليظة مرتفعة، وقد غشى الظلام على بصره، فهو لا يملك حراكًا - على طريقة الاستعارة التمثيلية -.

ويأمر الحق تبارك وتعالى نبيه - صلى الله عليه وسلم - إذا التقى بجموع الكافرين أن يشتد فى قتالهم حتى تلحقهم الهزيمة ويدخل فى قلوبهم الرعب، فيقول تعالى: (فَإمَّا تَثْقَفَنَّهم فى الحَرْب فَشَرِّدْ بهم مَنْ خَلْفَهُم لعلَّهُم يَذَّكرون) (الأنفال ٥٧).

فيصور الله تعالى اللقاء بين المسلمين وأعدائهم فى صورة من ظل يتربص بشىء حتى ظفر به ووقع عليه، وعبر عن ذلك بقوله: «تثقفنهم» وهذه الكلمة تحمل فى صياغتها اللفظية من عناصر السكنات والحركات والشد والجذب والذى يكون من نتيجته الظفر بهم - على طريقة الاستعارة التبعية.

ثم يصور الله تعالى إلحاق الهزيمة بهم فى صورة جند أشداء انقضوا فى هجوم قوى على طلائع الأعداء، فيأخذ الرعب والفزع منهم كل مأخذ، حتى يسرى ذلك منهم إلى من خلفهم من الجموع فيفروا فى كل جهة قبل أن يصلوا إليه - على طريقة الاستعارة التمثيلية -.

فتأمل كيف صاغ القرآن الكريم هذه الصورة التى استغرقت أسْطُرًا فى بضع كلمات مع ما اشتملت عليه من حركة فى الهجوم، وكأن السامع يرى منظرًا حيًّا فى فلاة واسعة.

فالاستعارة قد تجسم الأشياء المعنوية، وتعرضها فى صور مرئية ملموسة، فتكون لها الأثر البليغ، والوقع اللطيف.

تأمل قوله تعالى فى بنى إسرائيل : (ضُرِبَتْ عليهم الذِّلةُ أيْنَما ثُقفُوا، إلا بحبْلٍ من الله وحَبْلٍ من الناس، وباءوا بغَضَبٍ من الله، وضُرِبَتْ عليهم المسكنةُ) (آل عمران ١١٢).

فقد صورت الذلة والمسكنة محيطة بهم من كل جانب كإحاطة الخيمة بمن تُضْرب عليه، فهذه الصورة المعنوية قد جسمت فى صورة محسوسة تراها العين، وهذا يؤكد المعنى ويقرره فى الأذهان.

ومثل هذا التجسيم تراه فى الاستعارة المكنية فى قوله تعالى : (فَلَما ذَهَب عن إبراهيمَ الروعُ وجاءَتْهُ البشرى يُجَادلُنا فى قوم لوط) (هود ٧٤).

الروع والبشرى من الأمور المعنوية، لكن كلا منها صُوِّر وكأنه حى يتحرك يذهب ويجىء.

ومن هذا قول الشاعر :

وَذِى رَحِمٍ قَلَّمْتُ أظْفار ضِغْنِه بحلْمَى عنه وهو لَيْس له حِلمُ

فهذا الضغن - وهو أمر معنوى - صار حيوانًا شرسًا شديد الأظفار، يقابله مَعْن فيقلم أظفاره ليأمن شره، فالاستعارة جعلت المعنوى صورة مجسمة تشاهد بالحاسة مع التلاؤم بين المعنى الحقيقى والصورة التى يرمز بها الشاعر إليه.

وقد تُلبْس الجمادَ صورة الأحياء من بنى البشر، وتضفى عليهم عواطفهم ومشاعرهم، كقوله تعالى : (وأرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لوَاقِح) (الحجر ٢٢)، فقد خلعت الاستعارة على الرياح صفات الأحياء من بنى الإنسان التى من صفاتها التلقيح والتوالد.

ومنه قول سوَّار بن المضرِّب يصف الريح اللطيفة، فيقول :

بعُرض تَنُوفةٍ للريح فيها نَسِيمٌ لا يَرُوعُ التُّرْب وانِ[1]

فالشاعر يعبر عن لطف الريح بأنها لا تثير التراب، ولكن التراب ليس ذرات

---

(١) عرض : جانب، تنوفة : صحراء، وان : ضعيف.

جامدة تحملها الريح، وإنما هو إنسان قد أغفى هانئًا لا يحس بما يروعه ويخيفه.

كذلك الاستعارة تبعث فى النفس من التأثير أضعاف ما يبعثة التعبير المجرد.

تأمل قوله تعالى : (وللذّين كفرُوا بربِّهم عَذابُ جهنم وبِئْسَ المصير، إذَا ألقُوا فيها سمعِوُا لها شَهِيقًا وهى تَفُور. تكاد تَمَيَّزُ من الغَيْظ كلَّما أُلْقِى فيها فَوْجٌ سأَلَهُم خَزَنَتُها أَلَمْ يأتكمْ نذيرٌ) (الملك ٦، ٨).

حقيقة « الشهيق » الصوت الفظيع، وهما لفظتان، والشهيق لفظة واحدة، فهو أوجز على ما فيه من زيادة البيان.

و« تميز » حقيقة الكلام : تنشق من غير تباين، والاستعارة أبلغ، لأن التميز فى الشيء هو أن يكون كل نوع منه مباينًا لغيره، وهو أبلغ من الانشقاق لأن الانشقاق قد يحصل فى الشيء من غير تباين.

و« الغيظ » حقيقة الكلام : شدة الغليان، وإنما ذكر الغيظ لأن مقدار شدته على النفس مدرك محسوس، ولأن الانتقام منا يقع على قدره.

ففيه بيان عجيب، وزجر شديد، لا تقوم مقامه الحقيقة ألبتة[1].

فالاستعارات تضافرت فى رسم نار جهنم وإبرازها فى صورة تنخلع لها القلوب من الفزع والخوف، صورة مخلوق ضخم بطاش جبار عابس الوجه يغلى صدره من قوة الغيظ، وشدة الحقد، وكل ذلك يبعث فى النفس من التأثير مالا يبعثه التعبير المجرد.

وأسلوب الاستعارة فى هذا التصور المعجز فى قوله تعالى : (إنَّ الله اشْتَرى من المؤْمِنين أنفُسهم وأموالَهم بأن لَهُم الجنة يُقاتلون فى سبيل الله فَيَقْتُلونَ ويُقْتَلون وعْدًا عليه حَقًّا فى التَّوراة والإنجيلِ والقرآن، ومَنَ أَوْفَى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكِم الذى بايعْتُم به وذلك هُو الفوزُ العظيم) (التوبة ١١١)، هذا التصوير هو الذى جعل أحد الصحابة يرفع صوته قائلا : ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل، ثم

(١) الصناعتين ٢١٨.

يخوض المعركة غير هياب ولا وجل لتحقيق ما تحمله الآية من وعد كريم[١].

ولقد بولغ فى ذلك على وجه لا مزيد عليه فاشتراء أنفس المؤمنين وأموالهم من الله مؤكد، والثمن مؤكد - لضمان تحققه لهم، حيث قال: (بأن لهم الجنة) ولم يقل بالجنة، مبالغة فى تقرير وصول الثمن إليهم واختصاصه بهم، كأنه قيل: بالجنة الثابتة لهم المختصة بهم، ثم زاد فى التأكيد بقوله - وعدًا عليه حقًّا - وهو مصدر مؤكد يدل على كون الثمن مؤجلا، وهذا الوعد ثابت فى التوراة والإنجيل والقرآن، وقوله: (ومن أوفى بعهده من الله) - اعتراض يقرر مضمون ما قبلها، فالله أوفى بالوعد من كل واف، ثم يختم الآية بما يؤكد أقصى درجات الفوز والفلاح، ثم ما فى ذلك من معنى البعد، إشارة إلى بعد منزلة المشار إليه وسمو رتبته فى الكمال، وضمير الفصل «هو» من مؤكدات الجملة.

فلا عجب بعد ذلك إذا سمعنا هذا الصحابى يقول: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل.

وكذلك قوله تعالى: (وفى عادٍ إذْ أرْسلنَا عليهم الريحَ العَقِيم. ما تَذَرُ من شىء أتَتْ عليه إلا جعلتْه كالرَّميم) (الذاريات ٤١، ٤٢)، فإذا علمنا أن العرب كانوا مولعين بالأولاد يعتزون بهم، ويتفاخرون بكثرتهم، فكان من أبغض الأشياء عندهم عقم المرأة، لما فيه من حرمانهم من أعز أمانيهم، وزينة حياتهم، فالاستعارة تصور تلك الريح التى أتت بالهلاك بتلك الصورة المنفرة التى تؤثر فى النفس، وتحز فى القلب، وفيها من الإيجاز والمبالغة ما لا يخفى.

ومثله قول الحطيئة يستعطف عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - عندما سجنه بسبب هجائه للزِّبرقان بن بدر بقوله:

دَع المكارمَ لا ترحَلْ لبُغْيتها واقْعُد فإنك أنت الطاعم الكاسى

وكان الحطيئة قد خلف وراءه أطفالا بوطنه - ذى مرخ - قرب المدينة، فقال وهو فى سجنه:

---

(١) انظر: الكشاف جـ/٢٤٥، البرهان جـ٢/٤٠٩، تفسير أبو السعود جـ٢/٢٩٨.

ماذَا تقول لأفْراخ بذى مَرَخٍ زُغْبِ الحواصل لا مَاءٌ ولا شَجَرُ
ألقَيْتَ كاسِبهم فى قَعْر مُظلِمَةٍ فاغفرْ عليك سلام الله يا عمرُ

فعبر عن الأولاد الصغار بـ «أفراخ» على سبيل الاستعارة، وصور أطفاله طيرًا صغارًا ضعافًا لمَّا تَرِشْ، وقد حُبس كافلها الذى يسعى ليقوتها، فهى مُسلَمة إلى الجوع والموت.

فهذا التصوير يؤثر فى نفس الخليفة ويثير رحمته، بل يجعله كأنه الجانى عليها إذا هو لم يطلق كاسبها، ولو أنه سلك سبيل الحقيقة وقال: تركت أولادى صغارًا ضعافًا جياعًا بلا مطعم ولا عائل لأطال ولم يبلغ من التأثير ما بلغه التصوير بالاستعارة.

فجمالها أتى من أنها تصور المعنى للسامع تصويرًا مؤثرًا فى النفس فيقر فى الأذهان مع الإيجاز والمبالغة المقبولة، بسبب تناسى التشبيه، وما يتبع ذلك من تصوير المشبه بصورة المشبه به.

ولو عبر الشاعر فى هذا المقام بلفظ «أشبال» بدلا من أفراخ لم يصور ما أراد من ضعف أبنائه، ولم يحقق ما قصده من استعطاف.

وقد درج كثير من العلماء على عد هذا البيت من الاستعارة فى المفرد - كما صورنا - لكن السياق - كما يظهر - يقتضى أن يكون التركيب كله من قبيل الاستعارة التمثيلية، فالشاعر يصور أولاده الصغار وقد زج بعائلهم فى السجن وهم فى أشد الحاجة إليه، بصغار الطيور حين يلقى أبوهم فى قاع حفرة مظلمة، ثم استعير هيئة المشبه به للمشبه.

ومن الاستعارة الفائقة قوله تعالى: (ذلِك الكتابُ لا رَيْبَ فيه، هُدى للمتَّقِينَ، الذين يُؤْمنون بالغَيْب ويُقيمُون الصلاة) (البقرة ٢، ٣).

فقد شبه الأداء الكامل للصلاة بتقويم العود، بجامع التمام، والقرينة لفظ «الصلاة».

ويجوز أن يكون فى الصلاة استعارة بالكناية، بتشبيه الصلاة بالعود ثم حذف

المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه.

ويجوز أن يكون الكلام كله استعارة تمثيلية، بتشبيه هيئة المتمم لصلاته بهيئة المقوم للعود بجامع التعهد فى كل.

ويجوز أن يكون الكلام كناية عن الاجتهاد فى العمل.

وهناك صيغتان لهذه المادة.

أولهما: قام - اللازم - وما اشتق منها، ويكثر استعمالها فيما كان ضد القعود، أو مجرد مباشرة الإتيان ونسبته إلى فاعله، أو بمعنى القرار والإقامة.

ثانيهما: أقام - المتعدى - وما اشتق منها، وهذه يكثر استعمالها فيما كان بمعنى التعديل والدوام.

والصيغتان وإن استعملت كل منها فى مقام الأخرى فى اللغة إلا أن الحس القرآنى فرق بينهما.

فالأولى: استعملها القرآن فى المواضع الآتية:

«فى مسجد الضرار ومسجد قباء (لا تَقُمْ فيه أبدًا، لَمَسْجدٌ أُسِّس على التَّقْوَى مِنْ أول يَوْمٍ أَحَقُّ أن تَقُومَ فيه) (التوبة ١٠٨).

وفى قوله تعالى فى صلاة الليل: (قُم الليل) (المزمل)، (إن ربَّك يَعْلَم أنَّك تَقُوم أدْنَى من ثُلثي الليل ونِصْفهُ) (الزمل ٢٠)، (وتوكَّل علَى العَزِيزِ الرحيم، الذِى يَرَاكَ حينَ تقوم) (الشعراء ١١٧، ١١٨).

والمقام فى هذه الآيات لايتطلب الإقامة- بمعنى الأداء التام الكامل، بل مطلق تحقق وجود الشيء، فالنهى عن القيام فى مسجد الضرار هو أدنى ما يتحقق به أداء الصلاة - مجاز مرسل - أما مسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقد جاءت الصيغة فيه على سبيل المقابلة، وليس المقام لبيان أكمل الصلوات.

أما الصيغة الثانية: فقد ورد استعمال القرآن الكريم لها فى المواضع التالية: (وأَقيمُوا الصَّلاة) (المزمل ٢٠) (ويُقيمُون الصلاة) (التوبة ٧١)، (وأَقَامُوا الصَّلاة)

(البقرة ٢٢٧)، (حَتَّى يقيموا التَّورَاة والإنجيل) (المائدة ٦٨)، (بل أَقِيمُوا الدِّين ولا تَتَفَرَّقُوا فيه) (الشورى ١٣) وغيرها.

ففى آيات الصلاةقصد منها إتمامها وتسويتها حيث وقعت وصفًا للمؤمنين، ومعنى إقامة التوراة والإنجيل والدين؟ العلم والعمل بما فيها من التعاليم. فالمقام ليس لعلاقة الجزئية وإنما للمشابهة التى تتسع لبيان معنى التمام والكمال فى الأداء - أو المكنية التى يذهب الشبه فيها إلى قياس الصلاة بالعود - أو التمثيل التى تكون المبالغة فيها عن طريق الهيئة والصورة - أو الكناية التى تكون المبالغة فيها عن طريق اللزوم.

وهكذا تأتى الصورة المجازية فى الآية على حالة لا طاقة للحقيقة بإخراجها عليها، فأين هذا البيان من التعبير بالكلمة الحقيقية: «ويتمون أركانها»[1].

فبلاغة الاستعارة إنما تكون بما فيها من إيحاءات، وإثارات فنية يحملها اللفظ: وما يطوى تحته من انفعالات، ويصور من أحاسيس، وتلك الروح التى يبثها الأديب هى التى تمنحه الحيوية والقوة.

وإيحاء الألفاظ ووقعها النفسى فى مثل تلك النصوص هو ما سماه القدماء بالمعانى الثانية.

يقول عبد القاهر فى مزية الاستعارة:

«ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز هذا البيان أبدًا فى صورة مستجدة تزيد قدره نبلا، تُوجب له بعد الفضل فضلا....

ومن خصائصها التى تذكر بها، وهى عنوان مناقبها، أنها تعطيك الكثير من المعانى باليسير من اللفظ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر، وتجنى من الغصن الواحد أنواعًا من الثمر، وإذا تأملت أقسام الصنعة التى بها يكون الكلام فى حد البلاغة، ومعها يستحق وصف البراعة، صادفتها نجومًا هى بدرها.

(١) انظر «المجاز والإعجاز» رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية - فرع البنات.

وإنك لترى بها الجماد حيًّا ناطقًا، والأعجم فصيحًا، والأجسام الخُرس مبينة، والمعانى الخفية بادية جلية.

إن شئت أرتك المعانى اللطيفة التى هى من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون، وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون[1].

* * *

هذا والاستعارة بأنواعها أبلغ من المجاز المرسل، لأن علاقتها المشابهة، ومبناها على دعوى الاتحاد - لفظًا ومعنى - لقيامها على إدخال المشبه فى جنس المشبه به، وجعله فردًا من أفراده.

أما المجاز المرسل، فإن فيه دعوى الاتحاد فى اللفظ فقط وذلك كإطلاق «الأصابع» - مثلا - على «الأنامل» فى قوله تعالى: (يجعلون أصابعهم فى آذانهم).

أما الاتحاد فى المعنى فغير متحقق - فى المجاز المرسل - إذ ليس بين «الأصابع» و«الأنامل» تشابه حتى يمكن ادعاء اتحادهم.

وإذا كانت الاستعارة بأنواعها أبلغ من المجاز المرسل، فإن أنواع الاستعارة ذاتها تتفاوت فى الأبلغية. فأبلغ أنواعها: الاستعارة التمثيلية، لأنها مبنية على أبلغ أنواع التشبيه ولأنها إنما تكون فى الهيئات المنتزعة من أمور متعددة والشأن فيها كثرة الاعتبارات وكثرة الملاحظات، التى تستدعى دقة النظر ولطف الروية، يليها فى الأبلغية: الاستعارة بالكناية، لأن قرينتها إثبات لازم المشبه به للمشبه، ولاشتمالها على المجاز العقلى الذى هو قرينتها.

أما التصريحية فهى بعد المكنية فى الأبلغية، وهى تتفاوت أيضًا، فأبلغها المرشحة، ثم المطلقة ثم المجردة.

---

(١) أسرار البلاغة ٣٣.

طابع التصوير فى الجاهلية

الطابع العام الذى يشيع فى تصوير أهل الجاهلية هو الطابع البدوى، فأساليب التشبيه والاستعارة مستمدة من الناقة والجمل، والرحى والجبل، والوحش والغزلان، والصخور، والظباء، وغير ذلك مما شاع فى الوسط البدوى، المنتزع من حياتهم، وهذا يفصح عن تكوينهم النفسى، وميلهم وتقديسهم لوطنهم، وحبهم لمجتمعهم وارتباطهم به..

وقد أكثر الشعراء فى تصويرهم وأخيلتهم من ظواهر الطبيعة التى تتصل بالشدة والرهبة والقدرة، فاستعاروا من الرحى والنار والوحش والليل، وأهملوا كثيرًا من مظاهر الطبيعة التى فيها رقة ولطف، كالصباح والشروق والأصيل، ومن ثم فهى توحى بالعنف والألم والكفاح أكثر مما توحى بالرقة واللين.

يقول زهير[١] فى الصلح بين عبس وذبيان فى معلقته التى دعا فيها إلى السلم، وذم فيها الحرب، وأظهر مساوئها:

١ - ومَا الحربُ إلَّا ما عِلمتُمْ وَذُقْتُمُ ... وما هو عَنها بالحَديثِ المُرجَّمِ
٢ - متى تَبْعَثُوها تَبْعثُوهَا ذَمِيمةً ... وتَضْرَ إذَا ضرَّيْتُموها فَتَضرمِ
٣ - فَتَعرككُم عَرْكَ الرَّحَى بثفالِها ... وتَلْقَحْ كِشَافًا، ثم تُنْتِجْ فَتُتْئِمِ
٤ - فتُنْتَجْ لكم غلمانَ أشْأَمَ كلهم ... كأحمر عادٍ، ثم تُرضِعْ فتفطِمِ
٥ - فتُغْلِلْ لكم ما لاتُغِلُّ لأهلها ... قرىً بالعراق من قَفِيزٍ ودِرهمِ
٦ - رَعُوا ظِمأهُم حتى إذا تَمَّ أوردُوا ... غمارًا تَفَرَّى بالسِّلاحِ وبالدَّمِ
٧ - فقضَّوْا منايَا بَيْنَهم ثمَّ أصْدَروا ... إلى كَلإٍ مُسْتَوبلٍ متوخَّمِ

---

(١) انظر شرح المعلقات السبع للزوزنى ٩٣.

اللغة :

١ - الذوق : التجربة، الحديث المرجم : الذى يحكم فيه بالظن - والمعنى : ليست الحرب إلا ما علمتموها ومارستم كراهتها، وهذا ما شهدت عليه الشواهد الصادقة من التجارب.

٢ - ضَرِىَ الكلب بالصيد - بالكسر - ضَراوة - بالفتح - أى تعوَّد، والمراد هنا : شدة هيجان النار وسعارها، وضرمت النار : التهبت - والمعنى : إذا أوقدتم الحرب ذممتم، ومتى هيجتموها هاجت.

٣ - ثفال الرحى : خرقة تبسط تحتها ليقع عليها الطحين، والباء بمعنى «مع» واللقح واللقاح : حمل الولد، الكشاف : أن تلقح الناقة مرة كل سنة، وهو أردأ النتاج، وأحسنه أن تلد سنة وتستريح سنة، أنتجت الناقة ونتجت : إذا ولدت، الإتآم : أن تلد الأنثى توأمين، العرك : الدلك والطحن.

المعنى : تطحنكم الحرب طحن الرحى الحبوب مع ثفالها، وصنوف الشر التى تتوالد منها كثيرة بمنزلة أولاد النوق التى تلد كل سنة توأمين.

٤ - الشؤم : ضد اليمين، وأحمر عاد : المراد به عاقر ناقة ثمود وهو قدار بن سالف، وهو المشار إليه فى قوله تعالى : (كذبت ثمود بطغواها، إذ انبعث أشقاها، فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها) (الشمس ١١-١٣) ويقال لثمود : عاد الآخرة لقوله تعالى : (وأنه أهلك عادًا الأولى، وثمود فما أبقى) (النجم ٥٠).

والمعنى : أبناؤكم الذين يولدون فى أثناء تلك الحروب كل منهم يضاهى فى الشؤم عاقر الناقة، وستكون ولادتهم ونشأتهم فى الحروب فيكونون مشائيم على آبائهم.

٥ - أغلت الأرض : إذا كان لها غلة وثمرة، والحرب لا تغل، وإنما هو تهكم واستهزاء لمثيرى الحرب - المعنى أن المضار المتوالدة عن الحرب دماء وقتلى، وليست تغل لكم مثل ما تغل قرى العراق.

٦ - الرعى : من رعت الماشية الكلأ، الظِّمْأ : الاسم من «الظمأ» وهو العطش، الغمار : جمع غمر وهو الماء الكثير. التَّفَرِّى : التشقق - والمعنى : أنهم

كفوا عن القتال، وأقلعوا عن النزال مدة معلومة ثم عادوا إلى الحرب كما ترعى الإبل مدة معلومة ثم ترد الماء بعد الرعى، لكنها لم تجد إلا الماء الذى يسيل بالرماح والدماء.

٧ - قضوا منايا بينهم : أى قتل كل واحد من الحيين صنفا من الآخر، فكأنهم تموا منايا قتلاهم، أصدرت، ضِدّ أوْرَدَتْ، الوبيل والوخيم : الذى لا يستمرأ.

المعنى : هم فى اعتزامهم على الحرب ثانية بمنزلة الإبل التى ترعى كلأ وبيلا لا يستلذ.

البلاغة :

لجأ الشاعر فى تصوير هذه الحرب، وإشاعة الكراهية فيها إلى عدة تشبيهات واستعارات، وكلها تحتاج إلى تأمل شديد حتى نتذوقها، ونحس مبلغ الجهد والصنعة والتأنى الذى بذله زهير، وهذا يجعلنا أكثر إدراكا لما قاله القدماء من أنه كان يمكث فى عمل القصيدة حولا كاملا، ومن هنا عُدّ من عبيد الشعر.

١ - فلكى يحثهم على التمسك بالصلح، وينبئهم بسوء عاقبة الحرب استعار لتجربتهم لها ومعرفتهم بكوارثتها لفظ «الإذاقة» إشعارا بشدة مهالكها، وكثرة إصابتها وهى استعارة جرت مجرى الحقائق لشيوعها فى البلايا والشدائد - هكذا قال عنها الزمخشرى فى قوله تعالى : (فأذاقها الله لِبَاسَ الجُوع والخَوف) (النحل ١١٢)

٢ - ثم استعار فى البيت الثانى لشدة إصابتها وقوة ضراوتها النار التى يقوى ضرامها، وكلما حرصوا على إشعالها التهبت نارها فأتت على الحرث والنسل.

٣ - جعل زهير هذا فاتحة لتصوير أكثر عمقًا وأبعد خيالا- فقد جعل إفناء الحرب لهم بالعرك والدلك، ثم شبه هذا الفناء الكامل والدمار التام بطحن الرحى للحب، وفى «بثقالها» ما يجعل الرحى وكأنها فى حالة استعداد تام واستنفار كامل للعمل، ومع ما فى هذا التشبيه دلالة على بساطة البيئة، فإن فيه من مظاهر القوة والعنف ما يناسب الحرب، ولا يغنى فى هذا الموضوع لفظ آخر، إذ فى لفظ «الرحى» والطحن من تحويل الحب إلى ذرات صغيرة ما يلائم الدمار فى الحرب.

ثم إن فى هذه الحرب صنوفا من الشر تتوالد عنها فهى لذلك بمنزلة النوق التى تلد كل سنة وليست تلد ولدا واحدا وإنما تلد توأما، وهو مثل لكثرة الشرور والآثام التى تتولد عن الحرب - وقد وضح الشاعر ذلك عن طريق الاستعارة التمثيلية.

٤ - صور الشاعر ما يولد من الأبناء فى ظل تلك الحروب بأن كل واحد منهم يضاهى فى الشؤم عاقر ناقة ثمود وسيكونون موسومين بالشؤم على الآباء حيث إن ولادتهم ونشأتهم فى خلال لهب الحروب.

٥ - صور الشاعر نتائج الحرب على طريقة التهكم بهم بالغَلَّة، فهى غَلة، لكن فيها الموت والهلاك، فقد جعل النتائج المتولدة عن هذه الحرب والمضار الكثيرة من دماء وقتلى بمنزلة الغلة «استعارة تهكمية» لكن لا تكون كغلة قرى أهل العراق المريحة.

٥ - وفى البيتين الأخيرين نجد استعارة تمثيلية أكثر طرافة ودقة، حيث شبه كف القوم عن القتال وإقلاعهم عن النزال مدة معلومة، ثم عودتهم إلى الحرب مرة ثانية، بالإبل التى ترعى مدة ثم ترد الماء بعد الرعى، لكنها عند الورود لم تجد إلا الماء الذى يسيل بالرماح والدماء، وعندما ترعى لا ترعى إلا الكلأ الوخيم الوبيل.

فنرى فى أبيات زهير كيف ازدحمت الاستعارات واختلفت التشبيهات، وقد استعان فيها بالكثير من عناصر البيئة من «الرحى والنار والنوق والكلأ والرعى والغلة والإيراد والإصدار»، انتزع كل ذلك من صميم مجتمعه وأحوال عصره، واختلط ذلك بنفسه وخياله، فتولد عن ذلك ما نرى من صنعة مطبوعة، وسبك مجوّد، وكذلك كانت الصور فى العصر الجاهلى، يقول ابن طباطبا:[1]

«واعلم أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها وأدركه عيانها، ومرت به تجاربها، وهم أهل وبر، صحونهم البوادى، وسقوفهم السماء، فليست تعدو أوصافهم ما رأوه منها وفيها. . فتضمنت أشعارها من التشبيهات ما أدركه من ذلك عيانها. . ».

(١) عيار الشعر ص ١٠.

الاستعارة العامية والخاصية

علمنا أن التشبيه ليس على درجة واحدة من الفضل والمزية، فمنه النازل الهابط والقريب المبتذل، كتشبه الشجاع بالأسد، والمرأة بالبدر، ومنه البعيد الغريب.

كذلك الاستعارة تتفاوت تفاوتًا شديدًا، إذ هى تنبنى على التشبيه، وتعتمد عليه، وتبعًا لذلك فهى إما عامية، أو خاصية.

فالعامية : هى كل استعارة يكون الجامع فيها بين الطرفين واضحًا بحيث تفهمه العامة، كاستعارة الأسد للرجل الشجاع، والبدر للمرأة، والطيران للسرعة، والانقضاض لهجوم الفرس، والسباحة لعدوه، فالجامع فى كل ذلك داخل فى مفهوم الطرفين وقريب تفهمه العامة من الناس.

والخاصية : هى التى لا يظفر بها إلا من ارتفع عن طبقة العامة، وعندها تبلغ الاستعارة غاية شرفها، ولا يبصرها إلا ذو الأذهان الصافية، والطباع السليمة، والنفوس المستعدة التى أوتيت الحكمة وفصل الخطاب.

ومن هذا قوله تعالى حكاية عن زكريا - عليه السلام - : (قالَ ربِّ إنِّى وهَنَ العظمُ منِّى واشْتَعَلَ الرأس شيبًا) (مريم ٤)

أصل الاشتعال فى النار، وهو فى هذا الموضع أبلغ، وحقيقة الكلام كثرة الشيب، إلا أن الكثرة لما كانت تتزايد تزايدًا سريعًا صارت فى الانتشار والإسراع كاشتعال النار.

واستعارة «الاشتعال» إلى كثرة الشيب هى الاستعارة القريبة العامية، ولكن انضم إلى تلك الاستعارة تصرف آخر، فانتقلت بسببه الاستعارة من القرب إلى البعد، ومن الابتذال إلى الغرابة، وذلك بأن أسند الاشتعال إلى محله - وهو الرأس - فأشعر بأن الاشتعال قد عم المحل، وكل جزء من الرأس مشتعل لاشتعال ما فيه.

ولو أنه قال : اشتعل الشيب فى الرأس، أو شيب الرأس، لبقيت الاستعارة على قربها وابتذالها، ولكن تُصُرِّف فيها بهذا الإسناد الذى أكسبها بُعْدًا وغرابة.

وقد فطن عبد القاهر إلى أبلغية تلك الاستعارة وأفضيتها على غيرها لهذا السبب فقال[1] : إن فى الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلا من بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته.

ومن دقيق ذلك وخفية أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى : (واشتعل الرأْسُ شيْبًا) لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة، ولم ينسبوا الشرف إلا إليها، ولم يروا للمزية موجبًا سواها، هكذا ترى الأمر فى ظاهر كلامهم.

وليس الأمر على ذلك، ولا هذا الشرفُ العظيم، ولا هذه المزية الجليلة، وهذه الروعة التى تدخل على النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة، ولكن لأن يُسْلَك بالكلام طريقُ ما يُسند الفعل فيه إلى الشىء وهو لما هو من سببه، فَيُرفع به ما يُسند إليه ويُؤتى بالذى الفعلُ له فى المعنى منصوبًا بعده، مبينًا أن ذلك الإسناد وتلك النسبة إلى ذلك الأول إنما كانا من أجل هذا الثانى، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة، وذلك أنا نعلم أن (اشتعل) للشيب فى المعنى وإن كان هو للرأس فى اللفظ.

يُبَيِّنُ أن الشرف كان لأن سُلِك فيه هذا المسلك، وتُوُخِّىَ به هذا المذهب أن تدع هذا الطريق فيه وتأخذ اللفظ فتسنده إلى الشيب صريحًا، فتقول اشتعل شيبُ الرأس أو الشيب فى الرأس، ثم تنظر هل تجد ذلك الحسن وتلك الفخامة، وهل ترى الروعة التى كنت تراها؟

فإن قلت : فما السبب فى أن كان «اشتعل» إذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل؟ ولِمَ بان بالمزية من الوجه الآخر هذه البينونة؟

فإن السبب أنه يفيد مع لمعان الشيب فى الرأس الذى هو أصل المعنى الشمولَ، وأنه قد شاع فيه، وأخذه من نواحيه، وأنه قد استقر به، وعم جملته، حتى لم يبق

---

(١) الدلائل ٧٥.

من السواد شيء أو لم يبق منه إلا ما لا يعتد به، وهذا ما لا يكون إذا قيل : اشتعل شيب الرأس، أو الشيب فى الرأس، بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة.

ووزان هذا أنك تقول : اشتعل البيت نارًا، فيكون المعنى أن النار قد وقعت فيه وقوع الشمول، وأنها قد استولت عليه، وأخذت فى طرفيه ووسطه، وتقول اشتعلت النار فى البيت، فلا يفيد ذلك بل لا يقتضى أكثر من وقوعها فيه وإصابتها جانبا منه، فأما الشمولُ وأن تكون قد استولت على البيت وابتزته فلا يعقل من اللفظ أَلْبَتَّةَ».

* * *

ومثل هذه الاستعارة فى الحسن وعلو الطبقة، قول كثير عزة :

ولَمَّا قَضَيْنا من مِنى كلَّ حاجةٍ ومسَّح بالأركان مَنْ هو مَاسح
وشُدَّتْ إلى دُهْم المهَارَى رحالُنا فلم يَنْظر الغَادِى الذى هو رَائح
أَخَذْنا بأطراف الأحاديثِ بيْنَنَا وسالتْ بأعناق المطىِّ الأبَاطح[1]

وقال ابن قتيبة[2] فى بيان أضرب الشعر : وضرب منه حسن لفظه وحلا فإذا أنت فتشته لم تجد هناك طائلا، ومثل بتلك الأبيات، وتابعه فى ذلك قدامة بن جعفر[3]، وأبو هلال العسكرى[4].

والحق أن ابن قتيبة لم يحسن تعليل هذه الأبيات فمسخها مسخًا شنيعًا وذهب بأصل جمالها الذى تراءى منه شيء فى الألفاظ وغفل عن باقيه، وتلك الحقيقة التى غفل عنها ابن قتيبة أدركها عبد القاهر، فقال[5] : «وأول ما يتلقاك من محاسن هذا

---

(١) دهم : جمع أدهم وهو الأسود، المهارى : الإبل نسبة إلى مهرة من عرب اليمن، وكان لا يعدلها شيء فى السرعة، لم ينظر : لم ينتظر منا السائرون فى الغداة السائرين فى الرواح للاستعجال. الأباطح : جمع إبطح وهو مسيل الماء فيه دقائق الحصى.

(٢) الشعر والشعراء جـ ١/٦٤.

(٣) نقد الشعر ٣٣.

(٤) الصناعتين ٤٢.

(٥) الأسرار ١٦، وقد أشاد بتلك الأبيات قبل عبد القاهر ابن جنى «انظر الخصائص جـ ١/٢٢٨».

الشعر أنه قال : ولما قضينا من منى كل حاجة، فعبر عن قضاء المناسك بأجمعها والخروج من فروضها وسننها من طريق أمكنه أن يقصر معه اللفظ وهو طريقة العموم.

ثم نبه بقوله : «ومسح بالأركان من هو ماسح» على طواف الوداع الذى هو آخر الأمر.

ثم قال : «أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا» فوصل بذكر مسح الأركان ماوليه من زم الركاب، وركوب الركبان.

ثم دل بلفظة «الأطراف» على الصفة التى يختص بها الرفاق فى السفر من التصرف فى فنون القول، وشجون الحديث، أو ما هو عادة المتظرفين من الإشارة والتلويح والزمر، والإيماء، وأنبأ عن ذلك عن طيب النفوس وقوة النشاط، وفضل الاغتباط، كما توجبه ألفة الأصحاب، وأنسة الأحباب، وكما يليق بحال من وُفِّق لقضاء العبادة الشريفة، ورجا حسن الإياب، وتنسم روائح الأحبة والأوطان، واستماع التهانى والتحايا من الخلان والإخوان.

ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفة طبق فيها مَفْصل التشبيه، إذ جعل سلاسة سيرها بهم كالماء تسيل به الأباطح . . ثم قال : «بأعناق المطى» ولم يقل بالمطى، لأن السرعة والبطء؛ يظهران غالبًا فى أعناقها، وسائر أجزائها تستند إليها فى الحركة، وتتبعها فى الثقل والخفة».

فالمراد بقوله : سالت بأعناق المطىِّ الأباطح» أن الإبل سارت سيرًا حثيثًا فى غاية السرعة من سلاسة ولين، حتى كأنها كانت سيولا وقعت فى تلك الأباطح فجرت بها، فاستعار سيلان السيول فى الأباطح لسير الإبل فى سلاسة ولين، ثم اشتق منه «سال» بمعنى سارت سيرًا ليِّنًا سلساً.

وهذه الاستعارة قريبة عامية يدركها العامة والخاصة، وذلك لكثرة استعمالها وظهور جامعها. ولو أنه قال : وسالت الإبل فى الأباطح، لبقيت الاستعارة على قربها وابتذالها، لكن الشاعر تصرف فيها بحذق ومهارة، وأكسبها الدقة بصناعته، حتى انتقلت من القرب إلى البعد، وذلك بأن أسند الفعل المستعار وهو «سالت»

إلى الأباطح مجاز عقلى من إسناد ما للحال إلى المحل، للإشعار بكثرة المطى، وأنها ملأت الأباطح حتى ليخيل للرائى أن الأباطح هى التى تسير.

وبإضافة هذا التجوز إلى الاستعارة القريبة، ثم تعْدية الفعل بالباء، ثم إدخال الأعناق فى السير، لأن السرعة والبطء فى سير الإبل يظهران غالبًا فى الأعناق، فذكر الجزء المهم من الصورة يبعث فى المخيلة باقى الأجزاء، ويبرز الصورة جلية كاملة.

والمعنى على ذلك: سالت الأباطح ملتبسة بأعناق المطى» وذلك يقتضى ملابسة الفعل للأعناق، وأنها سائرة أيضًا، فيكون الفعل مسندًا تقديرًا للأعناق وهو مجاز عقلى.

فمع الاستعارة فى «سالت» مجازان عقليان: أحدهما لفظى: وهو إسناد الفعل إلى الإباطح، والآخر تقديرى: وهو إسناده إلى الأعناق.

وبهذا صارت تلك الاستعارة خاصية غريبة، بعد أن كانت عامية قريبة.

ومثل هذه فى الحسن وفى هذه اللفظة بعينها، قول سبيع بن الحطيم التيمى من بنى تيم اللات من ثعلبة، وكان قد استنصر بزيد الفوارس الضبى، فنصره، فقال:

نُبِّئْتُ زيداً فلم أفزعْ إلى وَكَلٍ ... رَثِّ السِّلاح ولا فى الحىِّ مغمورِ
سالت عليه شعابُ الحىِّ حين دَعَا ... أنصارهَ بوجوهٍ كالدنانيرِ[1]

يقول حينما أحدق بى الخطر، لجأت إلى زيد الفوارس الحديد السلاح، فما إن دعا قومه حتى جاءوه كالسيول حتى غَصَّ بهم الوادى، وازدحموا حوله مشرقة وجوههم من السرور، ثقة بشجاعتهم وزهواً بزعيمهم.

وقد شبه السير السريع السلس، بسيلان الماء فى الشعاب، بجامع قطع المسافة

(١) أفزع: ألجأ، وكل: عاجز، رث السلاح: بالى السلاح، مغمور: خامل، الشعاب: جمع شعب بكسر الشين وهو الطريق فى الجبل، أو مسيل فى بطن الأرض، أو ما انفرج بين الجبلين.

بسرعة ولين، ثم استعار السيلان لهذا السير، ثم اشتق منه «سال» بمعنى سار فى سرعة ولين.

وهذه الاستعارة قريبة، لأنها فى متناول العامة والخاصة لظهور جامعها، ولكنها اكتسبت الدقة بما أضفاه عليها الشاعر من الصنعة حيث أسند «سالت» إلى الشعاب دون الأنصار، فأفاد بهذا الإسناد المجازى أن الشعاب قد امتلأت بالأنصار، إذ لا يسند فعل الحالِّ إلى المحل إلا حيثما يراد أن الحالَّ قد ملأ المحلّ وعمّ جميع بقاعه.

ولم يكتف بذلك بل أدخل الوجوه فى السير مع تعدية الفعل إليها بالباء، وهذا إسناد عقلى مقدر.

وبهذا التصرف أخرج الشاعر هذه الاستعارة القريبة إلى منزلة عالية من الغرابة والبعد. ولو قال: سالت الأنصار فى شعاب الحى، لبقيت على أصلها من القرب والابتذال، ولكن هذا التصرف من الشاعر ألبسها ثوباً جديداً من الغرابة والبعد.

* * *

ومنه قول الشاعر:

فَـرْعـاءُ إنْ نَهَضَتْ لحـاجتهـا عَجِل القضيبُ وأبطأ الدِّعْصُ[1]

فقد شبه الشاعر قامتها بالغصن، بجامع الاعتدال واللين فى كل، فوجه الشبه ظاهر، والاستعارة فى ذاتها عامية وقريبة.

كما شبه درفها بكثيب الرمل، بجامع الضخامة فى كل، ووجه الشبه ظاهر، والاستعارة قريبة، لكن المجاز العقلى فى إسناد (عجل) إلى القضيب، وإسناد (أبطأ) إلى الدعص، أخرج الاستعارتين من الابتذال إلى الغرابة، لما فيه من الإشارة إلى لطافة قدها وضخامة ردفها إلى حد أن قَدَّهَا يساعدها على النهوض فيقعُد به ردْفها، كأن قامتها بلغت نهاية الحد المحدود من الدقة، وردفها بلغ نهاية

(١) فرعاء: طويلة الشعر، القضيب: الغصن، الدعص بكسر الدال وسكون العين: قطعة من الرمل المستدير المجتمع.

الحد المحدود من الضخامة، وزادها حسنا الطباق البديعى بالجمع بين الإبطاء والعجلة[١].

الاستعارة المكنية

تصدى ابن قتيبة «ت ٢٧٦ هـ» لعلماء الكلام وبخاصة المعتزلة المبالغين فى المجاز، والمغالين فى التأويل، فيحكى عنهم وجهتهم فى المجاز، ومقالتهم فى التأويل، فيقول[٢].

«ذهب قوم فى قول الله عز وجل وكلامه إلى أنه ليس قولا ولا كلاما على الحقيقة، وإنما هو إيجاد للمعانى، وصرفوه فى كثير من القرآن إلى المجاز - ثم ينقل بعض أقوالهم فى هذا مع شواهدها من الشعر - مثل قوله تعالى للسموات والأرض (ائْتِيَا طَوْعاً أو كَرْهًا، قَالَتَا: أتَيْنَا طَائِعين)[٣]، فلم يقل الله ولم يقولا، وكيف يخطاب الله معدوماً؟ وإنما هو عبارة لتكوينها فكانتا، كما قال الشاعر: حكاية عن ناقته:

تقول إذا دَرَأتُ لها وَضِينِي ... أهكذا دينه أبداً ودِينِي
أكلَّ الدهر حلٌّ وارْتِحَالٌ ... أمَا يُبْقى علىَّ ولا يَقِينى؟[٤]

هى لم تقل شيئاً من هذا، ولكنه رآها فى حال من الجهد والكلال، فقضى عليها بأنها لو كانت ممن يقول لقالت مثل الذى ذكروا، كقول الآخر:

* شَكا إلىَّ جَمَلى طُولَ السُّرَى *

---

(١) علم البيان ١٣٦.

(٢) تأويل مشكل القرآن ٨٧ - ٨٩.

(٣) الآية «ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين» (فصلت ١١).

(٤) درأت: بسطت، الوضين: بساط عريض من شعر، والبيتان للمثقب العبدى وقبلهما:

إذا قمت أرحلها بليل ... تأوه آهة الرجل الحزين

المفضليات ٨٥٦.

والجمل لم يشك ولكنه خَبَّر عن كثرة أسفاره وإتعابه جمله، وقضى على ذلك الجمل بأنه لو كان متكلماً لاشتكى مابه، وكقول عنترة فى فرسه:

فازْوَرَّ من وقْعِ القَنا بِلَبانه وشَكا إلىَّ بعَبْرةٍ وتَحَمْحُم[1]

«لما كان الذى أصابه يُشْتَكَى مثله، ويُسْتَعبر منه، جعله مشتكياً ومستعبراً وليس هناك شكوى ولا عَبْرَة».

* * *

فالسماء والأرض من مخلوقات الله الصامتة الجامدة التى لا تنطق ولا تبين، لكنها لو كانت ممن ينطق لنطقت، وكانت فى الانقياد والخضوع كالحى المتكلم.

والناقة يراها الشاعر، ويعاين ما عليها من أثر التعب والعناء، فيشعر - من رثاثة حالتها - بأنها لو تكلمت لجأرت إليه بالشكوى، ورفعت صوتها بالدعاء.

وعنترة يرى ما أصاب فرسه من الطعن، وما نال صدره من السهام، فيرسل الفرس صهيله ويطلق عويله، وكأنه يشكو الوجع، ويتبرم من الألم.

«وهذا لون من ألوان التصوير «يمكن أن نسميه «التشخيص» يتمثل فى خلع الحياة على المواد الجامدة والظواهر الطبيعية، هذه الحياة التى ترتقى فتصبح حياة إنسانية، ويهب لهذه الأشياء كلها عواطف آدمية، وخلجات إنسانية تشارك بها الآدميين، وتأخذ منهم وتعطى»[2].

وحينما نحلل هذا التشخيص، نرى أن هناك تشبيهاً مضمراً فى النفس نتيجة لعمق العاطفة وسعة الخيال - فمثلا فى الآية القرآنية (فقال لها وللأرْض ائْتِيَا طوْعاً أو كرْهاً قالتا أتينا طائعين) شبهت السماء والأرض - فى انقيادهما وخضوعهما

---

(١) ازور: مال، لبانه: صدره، التحمحم: ما كان فيه شبه الحنين، العبرة، تردد الدمع فى العين، وقبل البيت قوله:

مازلت أرميهم بثغرة نحره ولبانه حتى تسربل بالدم

الثغرة: الرقبة فى أعلى النحر، تسربل: اتخذ قميصاً (المعلقات السبع ١٨٠).

(٢) التصوير الفنى فى القرآن ٦٠.

وطاعتها لله - بإنسان يتميز بصفة القول والإتيان، ودل على هذا التشبيه بإثبات لازم المشبه به - وهو القول والإتيان - للمشبه، وهذا ما عرف بالاستعارة بالكناية[1]، وإسناد القول والإتيان إليهما قرينة الاستعارة، وأطلق البلاغيون على تلك القرينة «استعارة تخييلية».

وكذلك - فى أبيات الشعر - شبه الجمل بإنسان له خاصية التمييز والشكوى ودل على هذا التشبيه بإثبات لازم المشبه به - وهو القول والشكوى - للمشبه، وإسناد القول والشكوى إلى الجَمل قرينة المكنية، وقد سميت «استعارة تخييلية».

فالاستعارة بالكناية هى:

التشبيه المضمر فى النفس المتروك أركانه سوى المشبه، المدلول عليه بإثبات لازم المشبه به للمشبه.

* * *

هذا الفهم الذى فهمه المعتزلة، وهذا التأويل الذى اتجه إليه أهل التفكير منهم - والذى تصدى لهم بسببه ابن قتيبة وغيره من علماء أهل السنة - كان الهدف منه توضيح الطريقة السليمة لفهم أساليب القرآن حين تخرج عن أصل وضعها، وبيان أن القرآن لم يكن فى ذلك بدعا، بل قد جرت أساليب الشعر على ذلك، وخرجت عن أصل وضعها لهذا الهدف، وقد فهم العرب المراد منها على هذا الوضع دون لبس أو خفاء، وبهذا التأويل ظهرت الأساليب فى صورة تشخيصية صورت الجمادات والحيوان إنساناً له إرادة وقول وشكاية، وكل ما كان يَعْنيهم أن يلفتوا النظر أن من أساليب القرآن ما يجب أن يدركه التأويل وتخرج عن أصل وضعها حتى يفهم معناها ويعرف المراد منها، ولم يدر بخلدهم أن هذا الخروج يسمى استعارة تصريحية أو مكنية.

وظل هذا التفكير ينمو ويتزايد دون أن يضعوه تحت اسم معين حتى كان الإمام

---

(١) المراد بالكناية المعنى اللغوى وهو الخفاء، وتسمى أيضاً مكنية أى مخفية.

عبد القاهر الجرجانى فأشار إلى الاسم، وألمحَ إلى طريقة فهمها، فقال تعليقا على قول لبيد العامرى فى معلقته[١].

وغداةِ ريح قد كشفْتُ وَقِرَّةٍ إذْ أَصبحتْ بيَدِ الشَّمال زِمامُها[٢]

وذلك أنه جعل للشَّمال يداً، ومعلوم أنه ليس هناك مشار إليه يمكن أن تجرى اليد عليه، كإجراء «الأسد والسيف» على الرجل، فى قولك: انْبَرَى لى أسدٌ يَزْأَر، وسللت سيفاً على العدو لا يُفَل، و «الظباء» على النساء، فى قوله: «من الظباءِ الغيدِ»[٣]، و «النور» على الهُدَى والبيان، فى قولك: أبديتَ نوراً ساطعاً»، وكإجراء «اليد» نفسها على من يعز مكانه كقولك: «أتنازعنى فى يد بها أبطش، وعَيْنٌ بها أبصر؟» تريد إنساناً له حكم اليد وفعلها، وغناؤها ودفعها، وخاصة العين وفائدتها، وعزة موقعها، ولطف موضعها، لأن معك فى هذا كله ذاتاً يُنَص عليها وترى مكاناً فى النفس، وإذا لم تجد ذكرها فى اللفظ.

وليس لك شىء من ذلك فى بيت لبيد، بل ليس لك من أن تُخيل إلى نفسك أن الشَّمال فى تصريف الغَدَاة على حكم طبيعتها كالمدبر المصرف لما زمامه بيده، ومقادته فى كفه.

وذلك كله لا يتعدى التخيل والوهم، والتقدير فى النفس، من غير أن يكون هناك شىء يُحَس، وذات تُتَحصَّل.

---

(١) أسرار البلاغة ٣٤ وما بعدها.

(٢) بعد هذا البيت - على ما يظهر من المعنى - قوله:

بصبوح صافية وجذب كرينة بموتر تأتاله إبهامها

الغداة: البكرة، أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس، القرة: بكسر القاف وتشديد الراء: ما يصيب الإنسان من القر - بضم القاف - وهو البرد، الشمال: ريح تهب من الشمال، الصافية: الخمر، الكرينة: المغنية، الموتر: العود، تأتاله: تعالجه، والضمير فى «أصبحت» وفى «زمامها» يعود إلى القرة وهو رأى الخطيب والزمخشرى، أما عبد القاهر فيرى أنه يعود على الغداة، والمعنى: كم من غداة تهب فيها ريح الشمال الباردة كففت عاديتها بشرب الخمور واللهو والطرب «محاضرات فى البيان العربى ٨٧، المعلقات ١٣٠».

(٣) هذا جزء من بيت ومطلع قصيدة للبحترى يمدح المعتز بالله وتمامه:

مَن عذيرى من الظباء الغيد ومجيرى من ظلمهن العتيد؟

(ديوان البحترى ج ٢ / ٧٢٨.

ولا سبيل لك إلى أن تقول : كنى باليد عن كذا، وأراد باليد هذا الشيء أو جعل الشيء الفلانى يدا كما تقول : كنى بالأسد عن زيد، وعنى به زيداً، وجعل زيداً أسداً، وإنما غايتك التى لا متطلع وراءها أن تقول : أراد أن يُثْبت للشِّمال فى الغداة تصرفاً كتصرف الإنسان فى الشيء يقلبه، فاستعار لها اليد، حتى يبالغ فى تحقيق التشبيه.

وحكم الزمام فى استعارته للغداة : حكم اليد فى استعارتها للشمال، إذ ليس هناك مشار إليه يكون الزمام كناية عنه، ولكنه وفَّى المبالغة شرطها من الطرفين، فجعل للغداة زماماً، ليكون أتم فى إثباتها مصرِّفة، كما جعل للشِّمال يداً ليكون أبلغ فى تصييرها مصرِّفة.

ويوضح عبد القاهر الفرق بين الاستعارة التصريحية والمكنية، فيقول : ويفصل بين القسمين - أنك إذا رجعت فى القسم الأول إلى التشبيه الذى هو المغزى من كل استعارة تفيد، وجدته يأتيك عفْواً، كقولك فى «رأيت أسداً» رأيت رجلا كالأسد، ورأيت مثل الأسد، أو شبيهاً بالأسد.

وإن رمته فى القسم الثانى، وجدته لايواتيك تلك المواتاة، إذ لا وجه لأن تقول : «إذ أصبح شيء مثل اليد للشمال» أو «حصل شبيه باليد للشمال» وإنما يتراءى لك التشبيه بعد أن تخرق إليه إليه سِتراً، وتعمل تأملا وفكراً، وبعد أن تغير الطريقة وتخرج عن الحذو الأول، كقولك : «إذا أصبحت الشمال، ولها فى قوة تأثيرها فى الغداة شَبَه المالك تصريف الشيء بيده وإجراءها على موافقته، وجذبه نحو الجهة التى تقتضيها طبيعته وتنحوها إرادته.

فأنت - كما ترى - تجد الشبه المنتزع ها هنا إذ رجعت إلى الحقيقة، ووضعت الاسم المستعار فى موضعه الأصلى، لا يلقاك من المستعار نفسه، بل مما يضاف إليه، ألا ترى أنك لم ترد أن تجعل الشمال كاليد، ومشبهة باليد، كما جعلت الرجل كالأسد، ومشبهاً بالأسد، ولكنك أردت أن تجعل الشمال كذى اليد من الأحياء.

فأنت تجعل فى هذا الضرب المستعار له - وهو نحو الشمال - ذا شيء، وغرضك أن تثبت له حكم من يكون له ذلك الشيء فى فعل أو غيره، لا نفس ذلك الشيء فاعرفه».

وفى كلام عبد القاهر نلمس هذه الحقائق التالية :

١ - أن كلا من «الأسد» فى قولنا : «رأيت أسدا» المراد به الشجاع من الناس، وأن «اليد» فى قول لبيد : «يد الشَّمال» استعارة أو مستعار.

٢ - أن كلمة «الأسد» منقولة إلى شىء ثابت محقق وهو الرجل الشجاع وأن «اليد» لم تنقل إلى شىء محقق حساً أو عقلا فى جانب الشمال يمكن أن يشار إليه، أو يقصد من اليد، فنقول : كنى باليد عن كذا، أو أراد بها كيت.

٣ - أن كلا من «الرجل الشجاع» و «الشمال» مستعار له، فالرجل الشجاع مستعار له «الأسد»، والشمال مستعار له «اليد».

٤ - أن عبد القاهر أوحى لمن بعده بأن يقسم الاستعارة إلى تصريحية ومكنية، فاستعارة «أسد» للرجل الشجاع تصريحية، لأن المشبه مصرح به، وفى مثل «يد الشمال» استعارة - بمعنى أنه أثبت للشمال ما ليس لها وهى اليد - بناء على تشبيهها «أى الشمال» بما له يد - وهو الإنسان المصرف لما زمامه بيده، ولكنه لم يسم هذا التشبيه «استعارة بالكناية».

وجاء الخطيب القزوينى فأفاد من إشارات عبد القاهر وتابعه فى طريقته، فقال تعليقاً على قول لبيد السابق :

«فإنه جعل للشمال يداً، ومعلوم أنه ليس هناك أمر ثابت حساً أو عقلا تجرى اليد عليه، كإجراء الأسد على الرجل الشجاع، والصراط على ملة الإسلام، ولكن لما شبه الشمال لتصريفها القرة[1] على حكم طبيعتها فى التصريف : بالإنسان المصرف لما زمامه بيده، أثبت لها يداً على سبيل التخييل مبالغة فى تشبيهها به، وحكم الزمام فى استعارته للقرة : حكم اليد فى استعارتها للشمال فجعل للقرة زماماً، ليكون أتمّ فى إثباتها مصرَّفةً، كما جعل للشمال يداً، ليكون أبلغ فى تصييرها متَصَرفَة، فوفّى المبالغة حقها من الطرفين»[2].

---

(١) الخطيب يرى أن الضمير فى «أصبحت، وزمامها» يعود على القرة.

(٢) بغية الإيضاح جـ ٣آ١٥٥.

وقد سماها الاستعارة بالكناية أخذاً من السكاكى، وعرفها بأنها: التشبيه المضمر فى النفس، المتروك أركانه سوى المشبه، المدلول عليه بإثبات لازم المشبه به للمشبه.

وقد رزق الخطيب حظًا واسعاً فتناول علماء البلاغة كتبه بالشرح والتحليل ونسبوا إليه هذا الاتجاه، وظل يذكر فى الأوساط العلمية بأنه صاحب هذا المذهب، وأغفلوا جهود عبد القاهر.

* * *

وهناك من العلماء من جعلوا الاستعارة بالكناية هى:

لفظ المشبه به المحذوف المستعار فى النفس للمشبه المدلول عليه بإثبات شىء من لوازمه للمشبه.

وسمى هذا مذهب الجمهور، واستندوا فيه إلى قول الزمخشرى فى قوله تعالى: (وما يُضِل به إلا الفاسقين، الذين ينقضون عهْد الله من بَعْد مِيثَاقِه) (البقرة ٢٦، ٢٧)، فإن قلت: من أين ساغ استعمال النقض فى إبطال العهد؟ قلت: من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة، لما فيه من إثبات الوصلة بين المتعاهدين، وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها: أن يسكتوا عن ذكر الشىء المستعار، ثم يرمزوا إليه بذكر شىء من روادفه فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه، ونحوه قولك: «شجاعٌ يفترسُ أقرانَه» و «عالم يغْتَرفُ منه الناس» لم تقل هذا إلا وقد نبهت على الشجاع والعالم بأنهما أسد وبحر[1].

وكل استعارة مكنية قرينتها استعارة تخييلية، فهما متلازمان لا تنفك إحداهما عن الأخرى - عند الخطيب والجمهور - وأجاز الزمخشرى أن تكون قرينتها استعارة تحقيقية، كالآية السابقة (الذين يَنْقُضُون عَهْدَ الله)، فالنقض قرينة المكنية، وهو مستعار لنكث العهد.

---

(١) الكشاف جـ١ / ٥٧.

وبالمقارنة بين المذهبين - المذهب المنسوب للخطيب، والمنسوب للجمهور[١]. نجد :

أن الاستعارة المكنية على مذهب الخطيب تخرج عن المجاز اللغوى، فتسمية التشبيه المضمر فى النفس استعارة خالٍ من المناسبة، لأن التشبيه المذكور فعل من أفعال النفس، والاستعارة هى اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له.

أما تسميتها كناية أو مكنية، لأن التشبيه مضمر فى النفس، وقد كُنِّىَ عنه ورمز إليه بإثبات لازم المشبه به للمشبه.

وعلى ذلك فتسميتها استعارة فيه مسامحة.

أما على مذهب الجمهور: فالتسمية فى موضعها، إذ عليه تكون الاستعارة بأقسامها المختلفة، - عدا التخييلية - وهى لفظ المشبه به المستعمل فى المشبه، يصرح به فى التصريحية، ويضمر ويكنى عنه فى المكنية.

وقد رأى بعض الباحثين[٢] أن المكنية عند القزوينى فعل من أفعال النفس بينما هى عند عبد القاهر والزمخشرى اسم المشبه به المحذوف والمرموز له بإثبات شىء من لوازمه، مع أن الثابت عند عبد القاهر - كما نقلنا عنه - يفيد أنها فعل من

---

(١) وطريقة إجراء الاستعارة فى بيت لبيد - السابق على المذهبين:

الخطيب: «بيد الشمال» شبه الشاعر فى نفسه ريح الشمال فى تصريفها للقرة على حكم طبيعتها، بالإنسان المصرف لما زمامه بيده، ودل على هذا التشبيه بإثبات لازم المشبه به - وهو اليد - للمشبه - وهو القرة - على طريق الاستعارة بالكناية، وإثبات اليد للشمال «استعارة تخييلية» وهى قرينة المكنية.

وفى قوله: «زمامها» شبه الشاعر فى نفسه «القرة» وهو الضمير فى «زمامها» العائد على القرة، بالدابة الذلول، ودل على التشبيه بإثبات لازم المشبه به، وهو - الزمام - للمشبه - وهو القرة - على طريق الاستعارة المكنية، وإثبات الزمام للقرة «استعارة تخييلية» وهى قرينة المكنية.

وعلى مذهب الجمهور: «بيد الشمال» شبه الشمال فى تصريفها للبرد، بإنسان قد أخذ الشىء بيده يصرفه كيف شاء، ثم استعارة المشبه به للمشبه، ثم حذف ورمز له. بشىء من لوازمه - وهو اليد - استعارة بالكناية وإثبات اليد للشمال «استعارة تخييلية»، وهى قرينة المكنية.

وفى «زمامها» شبه «القرة» فى تأثيرها وانقيادها للريح الشمالية، بدابة ذلول، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو - الزمام.

(٢) القزوينى وشروح التخليص ٣٩٥.

أفعال النفس، والقزوينى تابع له فى ذلك.

* * *

وقد شاع التشخيص فى أساليب القرآن ومن ذلك:

١ - قوله تعالى: (ولَمَّا سَكتَ عن موسَى الغضبُ أخذ الألواحَ وفى نُسْختها هُدًى ورحمةٌ للذين هُمْ لربِّهم يَرْهَبُون) (الأعراف ١٥٤) كأن الغضب كان يغريه على ما فعل، ويقول له: قل لقومك كذا، وألق الألواح وجر برأس أخيك إليك[١]، فترك النطق بذلك وقطع الإغراء ولم يستحسن هذه الكلمة، ولم يستفصحها كل طبع سليم وذوق صحيح إلا لذلك، ولأنه من قبيل شعب البلاغة، وإلا فما لقراءة معاوية بن قرة «ولَمَّا سَكن عن مُوسى الغضب» لا تجد النفس عندها شيئًا من تلك الهزة وطرفا من تلك الروعة»[٢].

وقوله: (فَلَمَّا ذهَبَ عَنْ إبراهيمَ الروعُ وجاءَته البشرَى يُجَادلنا فى قوم لوطٍ) (هود ٧٤)، فيجسم القرآن الروع إنسانًا يذهب، والبشرى شخصًا يجيء.

ويقول الله تعالى فى وصف النار: (إنها لظى، نَزَّاعةً للشوى، تَدْعُو من أدبر وتَولى، وجَمَعَ فَأوْعَى) (المعارج ١٥ - ١٨) فيجعل النار داعية وهادية تدعو إلى الهدى والرشاد، والناس عنها فى انصراف.

ويقول فى وصف الأرض القاحلة المقفرة: (وتَرَى الأرضَ هامدَة فإذَا أنْزَلْنَا عليها الماءَ اهتَزَّتْ ورَبَتْ وأنْبَتَتْ من كل زَوْج بَهيج) (الحج ٥).

ويقول: (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنْزلنا عليها الماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ) (فصلت ٣٩).

فالأرض مرة تكون «هامدة» وأخرى «خاشعة» فتخلع عليها صفات الحى تشخيصًا لها وتجسيمًا.

---

(١) يشير إلى الآية قبلها رقم «١٥٠» ولما رجع موسى إلى قومه غضبان آسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه».

(٢) الكشاف جـ ٢/١٢٨.

ويقول: (وأَرْسَلْنا الرياح لواقح فأنْزلْنا من السَّماء ماءً فأسْقيْناكمُوه) (الحجر ٢٢)، فقد خلعت الآية على الرياح صفات الحيوانية التى من صفاتها التلقيح والتوالد.

ويقول: (قل يأيها الناسُ قَدْ جاءكم الحقُّ منْ ربِّكم) (يونس ١٠٨).

ويقول: (فإذا جاء الخوفُ رأيتَهم ينظرون إليك تَدُورُ أعْيُنهم كالذى يُغْشَى عليه من الموت) (الأحزاب ١٩).

فالحق والخوف من الأمور المعنوية التى لا يتصور منها إتيان أو مجىء، لكنها شبهت بمن يكون منه الإتيان والحركة تجسيمًا للمعنويات وتشخيصًا لها.

ويقول: (والليلِ إذَا عَسْعَس، والصبح إذَا تَنَفَّس) عسعس: أقبل ظلامه، تنفس: أصل التنفس: إخراج النفس من الجوف فيعقبه الراحة، والمعنى أن أول النهار كأنه شخص مهموم من ضغط الليل عليه فإذا ذهب الليل تنفس تنفس الراحة والهدوء.

* * *

وجوهر الشعر كله فى كل لغة هو التأثير الشديد فى النفوس، فالشعر لا يلجأ إلى المنطق ولا إلى الحجة - كما فى النثر - كذلك لا يؤثر فى العقل، بل وجهته الروح والقلب والعاطفة، وليكون الشعر آخذ فى النفوس، وأعلق بالقلوب، وأطرب للأفئدة، يجعل طريقة التصور منهجا، ويأخذ التمثيل والتصوير سبيلا.

ويروى أن بشارا سمع أبا العتاهية ينشد الخليفة المهدى قصيدته التى يقول فيها:

أتَتْه الخلافة منقادةً ... إليه تجَرْجر أذْيالها
فلم تَك تصلحُ إلا له ... ولم يك يصلحُ إلا لها
ولو رَامَها أحد غيره ... لزلزلت الأرض زلزالها

فهاج بشار - وكان أعمى - وقال لصاحبه: «انظر ويحك هل طار الخليفة عن فرشه»[1] ! ؟

(١) التوجيه الأدبى ١٢٧.

وكان عجب بشار لما فى تصوير أبى العتاهية، وإبداعه فى التمثيل وبلوغه الغاية فى التخييل، مما جعل التأثير فى السامع قويًّا وشديدًا.

ولو عرضنا هذه الأبيات على منطق العقل، وقسنا مضمونها بمقياس الصحة والخطأ، لوجدنا أكثره غير مقبول، فالخلافة ورثها عن أبيه ولم تأته منقادة، وهى معنى مجرد، ليست امرأة، بل وليست لها أذيال تجرها، وإنما هى أكبر منصب فى الدولة.

وهذا نرى أن العقل يرى سخف هذا الشعر وخروجه عن جادة المنطق، لكن الشاعر استطاع أن يثير خيال السامع، ومتى استثير الخيال أصبح السامع فى عالم آخر غير عالم المنطق والحساب.

ومثل ذلك قول معن بن أوس:

وذى رَحِم قلَّمتُ أظْفار ضِغْنِه   بحْلِمى عنه وهو ليس له حلمُ

فقد مثل لنا الضغن - وهو المعنى المجرد - وكأننا نراه بأعيننا ونلمسه بأيدينا.

ومثله قول أبى تمام:

ديمة سمحة القيادِ سكوبُ   مستعيث بها الثرى المكروبُ
لو سَعتْ بُقْعةٌ لإعظَام أخْرى   لسَعَى نحوها المكانُ الجديبُ

وهكذا نرى أن نزعة الشعر ترمى إلى رفع المعانى، والسمو بها عن المستوى المألوف إلى العالم الخيالى، فتجيد فى التصوير وإظهار الشىء المصور واضحًا ملموسًا، والمعنى المجرد مشخصًا محسوسًا.

* * *

وكثيرًا ما نستخدم فى عباراتنا استعارات مكنية لا ننتبه إليها وكأنها تنوسيت وأصبحنا لا نشعر بها، فنقول مثلا: إن سلوك علىٍّ مستقيم، لكن حزنه عميق، وفكره مظلم، وصوته غليظ، فالاستقامة والعمق والإظلام والغلظ من صفات الماديات - فإسنادها إلى العقليات من قبيل الاستعارة المكنية.

والسبب فى ذلك دوام الإلف والعادة وطول الزمن، فالعمل الإرادى إذا تكرر أصبح آليًا عاديًا لا يكاد يشعر به الإنسان.

الاستعارة المكنية أقوى فى تأكيد المعنى

الاستعارة المكنية أكثر بلاغة فى توكيد المعنى وتوضيحه من الاستعارة التصريحية، وذلك لإعمال العقل واجتهاد الفكر فيها أكثر من الأخرى، وفى مباحث علم النفس الأدبى[1] ما يفسر ذلك.

وذلك أن الاستعارة التصريحية تتضمن عمليتين عقليتين:

الأولى: متمشية مع الحقيقة والواقع قائمة على قاعدة تداعى المعانى، وهو إدراك ما بين المشبه والمشبه به من تشابه، ونظرًا لأن التشبيه هو أساس الاستعارة فإنهما يشتركان فى هذه العملية.

الثانية: تتحقق فى الاستعارة دون التشبيه، وهى عملية خيالية غير واقعية، وتلك هى ادعاء أن المشبه والمشبه به متحدان فى الحقيقة، فهما شخص واحد لا شخصان.

أما الاستعارة المكنية فنجد ثلاث عمليات عقلية، هما العمليتان السابقتان مضافًا إليها عملية ثالثة متصلة بالعملية الثانية، هى تخييل اتصاف المشبه بما هو من خصائص المشبه به.

فإذا قلنا مثلا: إنَّ عَيْنَ القَدَرِ تَرْعاكم - فإننا نرى الآتى:

أولا: شبهنا بين القدر والإنسان الذى يرعى الأشياء ويرقبها بعينه.

ثانيًا: أن القدر هو إنسان لا أقل.

ثالثًا: أثبتنا للقدر ما هو من لوازم الإنسان وهو العين.

---

(١) دراسات فى علم النفس الأدبى ٤٣، ٤٤، ٤٥.

التبعية ترد إلى المكنية

يجوز أن ترد كل استعارة تبعية إلى استعارة مكنية، وذلك بأن تنقل الاستعارة من موطنها فى التبعية - إلى قرينتها فتصير مكنية.

فمثلا يمن الله على المؤمنين ويذكرهم بما حباهم من نعم وقوة - فى المدينة - بعد ما كانوا عليه من ضعف ورقة حال - فى مكة - فيقول:

(واذْكُروا إذْ أنتم قليلٌ مستضْعَفون فى الأرض تَخافون أن يَتَخَطَّفكم الناسُ فآوَاكم وأيَّدكم بنَصره ورَزَقكم من الطَّيبات) (الأنفال ٢٦).

يجوز أن نستعير «التخطف» للاعتداء والإيذاء، لتصوير ما كانوا فيه من فزع وخوف واضطراب وأنهم كانوا يُؤخذون من كل جانب مباغَتين من غير أهبة ولا استعداد، ثم يشتق من التخطف، يتخطف - استعارة تبعية - والقرينة؛ إسناد التخطف إلى الناس، فهم لا يَخْطفون ولكنهم يسيئون المعاملة، ويتفننون فى وسائل القسوة.

ويجوز أن تجرى استعارة مكنية فى قرينة الاستعارة التبعية، فيُشبه «الناس» بما يَخْطف من الطيور الجارحة، ثم ندل على هذا التشبيه بذكر شىء من لوازم المشبه به للمشبه وهو التخطف «استعارة مكنية».

ومثله قوله تعالى: (إنَّا لَمَّا طَغَى الماءُ حَمَلْناكمْ فى الجارية) (الحاقة ١١).

حقيقة طغى: علا، واستعارة الطغيان لكثرة الماء أبلغ فى الطغيان من معنى القهر والغلبة، ثم اشتق من «الطغيان» طغى بمعنى علا - استعارة تبعية - والقرينة: إسناد الطغيان إلى الماء، فالماء لا يطغى وإنما يزيد ويكثر.

ويجوز أن تجرى استعارة مكنية فى قرينة التبعية، فيشبه «الماء» بإنسان ثم ندل على التشبيه بإثبات لازم المشبه به للمشبه وهو الطغيان «استعارة مكنية».

وهكذا كل استعارة تبعية يمكن أن ترد إلى المكنية، وإذا أجريت مكنية فلا تجرى

استعارة تبعية لأن القرينة حينئذ مستعملة فى حقيقتها.

وقد اختار السكاكى - تقليلا لأقسام الاستعارة - أن يستغنى عن التبعية - فى الفعل المشتق والحرف - ويجعل قرينة التبعية استعارة مكنية - كما سبق -

وقد ذكر السكاكى أنه من الأفضل - إذا أريد الضبط والدقة - أن يجعلوا هذه الاستعارة التبعية من الاستعارة المكنية وذلك بأن يجعلوا قرينة الاستعارة بالتصريح استعارة بالكناية عن المتكلم بواسطة المبالغة فى التشبيه[١].

وقد أشار الدكتور أحمد مطلوب إلى أن السكاكى أنكر الاستعارة التبعية[٢]، وليس الأمر كما ذهب إليه، فإنكار الاستعارة التبعية شيء، والاعتراف بها مع الإشارة إلى أن غيرها - وهى المكنية - أفضل شيء آخر.

* * *

وبعد أن استشهدنا لكل أنواع الاستعارة ببعض من آيات القرآن الكريم - وما تركناه فهو أكثر - نرى أن قول ضياء الدين بن الأثير أن استعارات القرآن قليلة[٣]، قولة مرفوضة بدليل الواقع والمشاهد من القرآن الكريم.

* * *

الاستعارة الفاضلة والهابطة

الاستعارة تقوم على المقارنة، وهى فى ذلك كالتشبيه، إلا أنها تتمايز عنه، فهى تعتمد على القياس والانتقال، فنحن فى التشبيه نواجه طرفين يجتمعان معا، بينما فى الاستعارة نواجه أحد الطرفين يحل محل الآخر ويقوم مقامه للاشتراك فى صفة أو صفات.

---

(١) المثل السائر جـ ٢/٩٧.

(٢) راجع مفتاح العلوم ١٨١.

(٣) البلاغة عند السكاكى ٣٢٨.

وفى الاستعارة نكون أمام نوعين من المعنى : المعنى الحقيقى - والمعنى المجازى، فإذا سمعنا قوله تعالى : (كتاب أنْزَلنَاه إليك لتُخرِج الناسَ من الظلُمات إلى النور) (إبراهيم ١)، فإن كلمة «الظلمات، النور» استعارة المراد منها «الكفر، الإيمان» وهذا المعنى المراد يصل إلى السامع عن طريق القياس والانتقال.

وينبغى لنعرف المعنى المقصود للاستعارة أن تكون هناك علاقة واضحة تربط بين الطرفين وتكون كالعلامة الهادية التى تيسر الانتقال من حقيقة الكلمة إلى مجازها.

والفارق بين لفظ «الاستعارة» وأصلها الحقيقى يكون فقط فى جهة التأثير، لكن ليس لها أية فاعلية فى خلق المعنى وإيجاده، فالاستعارة تؤدى المعنى الذى تؤديه العبارة الحقيقية نفسها، وليس من فارق إلا ما تؤديه الاستعارة من التأثير الحسن للمستمع، والترجمة الجيدة للمعنى، وإخراجه فى معرض أخّاذ وجميل.

وفى هذا الإطار كانت تدور أفكار النقاد والبلاغيين، فقد كانوا ينظرون إليها على أنها انتقال فى الدلالة، يقول الجاحظ عنها : «تسمية الشىء باسم غيره إذا قام مقامه[١]».

وابن قتيبة يرى أن العرب «تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى، أو مجاورًا إليها، أو مشاكلا»[٢].

وثعلب يعرفها بقوله : «أن يستعار للشىء اسم غيره أو معنى سواه[٣].

وابن المعتز يقول فيها : «استعارة الكلمة لشىء لم يعرف بها من شىء قد عرف»[٤].

ويرى الرمانى أن الاستعارة : «تعليق العبارة على غير ما وضعت له فى أصل اللغة على جهة النقل والإبانة»[٥].

---

(١) البيان والتبيين جـ ١/١٥٣.
(٢) تأويل مشكل القرآن ١٠٢.
(٣) قواعد الشعر ٤٦.
(٤) البديع ٢.
(٥) النكت ٨٥.

وأبو هلال يرى أن : « الاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها فى أصل اللغة إلى غيره لغرض »[١].

ومن هذه التعريفات المختلفة فى العصر والأوان نرى اتفاقهم على أن الاستعارة هى الانتقال والاستبدال فى الدلالة.

وإذا كانت الاستعارة ليست إلا مجرد نقل للفظ عما وضع له فى اللغة - كما ذهب إليه هؤلاء الرواد الأوائل - فإن عبد القاهر يرى أن مثل هذه التعاريف لا توضح الهدف الحقيقى من الاستعارة - وهو المبالغة القائمة على الادعاء، - فضلا عن أن مثل هذا التعريف يخلط بين الاستعارة وما عرف بعد - بالمجاز المرسل - الذى لا يقصد به المبالغة والادعاء، ولا يقوم على المشابهة، وإنما هو مجرد علاقة بين طرفين خارجة عن نطاق المشابهة، يقول عبد القاهر.

« واعلم أنك ترى الناس وكأنهم يرون أنك إذا قلت : رأيت أسدًا : وأنت تريد التشبيه كنت نقلت لفظ « أسد » عما وضع له فى اللغة، واستعملته فى معنى غير معناه حتى كأن ليس الاستعارة إلا أن تعمد إلى اسم الشيء فتجعله اسما لشبيهه، وحتى كأن لا فصل بين الاستعارة وبين تسمية المطر سماء، والنبت غيثا، والمزادة راوية، وأشباه ذلك مما يوقع فيه اسم الشيء على ما هو منه بسبب.

ويذهبون عما هو مركوز فى الطباع من أن المعنى فيها المبالغة، وأن يدعى فى الرجل أنه ليس برجل ولكنه أسد بالحقيقة، وإنما يعار اللفظ من بعد أن يعار المعنى، وأنه لا يشرك فى اسم الأسد إلا من بعد أن يدخل فى جنس الأسد. . . ومن أجل أن كان الأمر كذلك رأيت العقلاء كلهم يثبتون القول بأن من شأن الاستعارة أن تكون أبدًا أبلغ من الحقيقة، وإلا فإن كان ليس ها هنا إلا نقل اسم من شيء إلى شيء فمن أين يجب - ليت شعرى - أن تكون الاستعارة أبلغ من الحقيقة، ويكون لقولنا : رأيت أسدًا، مزية على قولنا : رأيت شبيهًا بالأسد؟

فليست الاستعارة نقل اسم عن شيء ولكنها ادعاء معنى الاسم لشيء. . . وقد

---

(١) الصناعتين ٢٠٥.

كثر فى كلام الناس استعمال لفظ النقل فى الاستعارة، فمن ذلك قولهم : إن الاستعارة تعليق العبارة على غير ما وضعت له فى أصل اللغة على سبيل النقل، وقال القاضى أبو الحسن : الاستعارة ما اكتفى فيه بالاسم المستعار عن الأصلى ونقلت العبارة فجعلت فى مكان غيرها. . وإطلاقهم فى الاستعارة أنها نقل للعبارة عما وضعت له من ذلك فلا يصح الأخذ به، وذلك أنك إذا كنت لا تطلق اسم الأسد على الرجل إلا من بعد أن تدخله فى جنس الأسود. . لم تكن نقلت الاسم عما وضع له بالحقيقة لأنك إنما تكون ناقلا إذا أنت أخرجت معناه الأصلى من أن يكون مقصودك، ونفضت به يدك، فأما أن تكون ناقلا له عن معناه مع إرادة معناه فمحال متناقض[1].

واعلم أن فى الاستعارة ما لا يتصور تقدير النقل فيه ألبتة، وذلك مثل قول المتنبى :

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه وفى أذن الجوزاء منه زمام[2]

لما جعل الجوزاء تسمع كعادتهم فى جعل النجوم تعقل ووصفهم لها بما يوصف به الأناسى، أثبت لها الأذن التى بها يكون السمع من الأناسى. . . فأنت لا تستطيع أن تزعم أن المتنبى قد استعار لفظ «الأذن» لأنه يوجب أن يكون فى الجوزاءِ شىء قد أراد تشبيهه بالأذن وذلك من شنيع المحال.

فقد تبين من غير وجه أن الاستعارة إنما هى ادعاء معنى الاسم للشىءِ لا نقل الاسم عن الشىء. وإذا علمت أنها ادعاء معنى الاسم للشىء علمت أن الذى قالوه من أنها تعليق للعبارة على غير ما وضعت له فى اللغة ونقل لها عما وضعت له كلام قد تسامحوا فيه لأنه إذا كانت الاستعارة ادعاء معنى الاسم لم يكن الاسم مزالا عما وضع له بل مقراً عليه».

وفهم عبد القاهر هذا لا يفترق - فى جوهره - عن مذهب السابقين عليه من أن

---

(١) دلائل الإعجاز ٣١٠-٣١٤.

(٢) الخميس : الجيش، الجوزاء : نجم فى السماء، زمام : صوت.

الاستعارة ادعاء وليست نقلا، ومع ذلك فالتمييز بين الطرفين ثابت، يظل كل منهما مستقلا ومتمايزاً عن الآخر.

وهم وإن اختلفوا فى النقل. كما ظهر من الجدل السابق - فقد اتفقوا على ضرورة التناسب والمشابهة بين الطرفين، وضرورة النقلة السهلة بينهما.

فهذا الانتقال من الاستعارة إلى حقيقتها لا يصح إلا إذا قام على علاقة وصلة تربط بين الطرفين، وتجعل عملية الانتقال سهلة ميسرة، وكلما كانت العلاقة التى تربط بين المستعار والمستعار له صحيحة عقليا، وكان المستعار قريباً من المستعار له ومشابها كانت الاستعارة قريبة ومقبولة، وإلا خرجت عن حدودها إلى الشناعة والهجنة والبعد عن الصواب.

يقول الآمدى فى لجوئه إلى مذاهب العرب فى التحكيم:

«وإنما استعارت العرب المعنى لما هو له، إذا كان يقاربه، أو يناسبه، أو يشبهه فى بعض أحواله، أو كان سبباً من أسبابه، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لا ئقة بالشىء الذى استعيرت له، وملائمة لمعناه».

ثم يعمد إلى عرض شواهد مما جاء من الاستعارات السائغة من شعر القدماء كامرىء القيس، وزهير، وطفيل الغنوى، وغيرهم، وختم ذلك باستعارات من القرآن الكريم، وقال:

«وعلى هذا جاءت الاستعارات فى كتاب الله تعالى: نحو قوله تعالى: (واشْتَعل الرأسُ شيباً) (مريم ٤)، لما كان الشيب يأخذ فى الرأس، ويسعى فيه شيئاً فشيئاً حتى يحيله إلى غير حاله الأولى، كالنار التى تشتعل فى الجسم من الأجسام فتحيله إلى النقصان والاحتراق، وكذلك قوله تعالى: (وآيةٌ لهم الليلُ نَسلَخُ منه النهار فإذا هُم مُظلِمون) (يس ٣٧)، لما كان انسلاخ الشىء من الشىء هو أن يتبرأ منه، ويتزيل حالا فحالا كالجلد عن اللحم وما شاكلهما - جعل انفصال النهار عن الليل شيئاً فشيئاً حتى يتكامل الظلام انسلاخاً».

ثم ذيل كلامه هذا بقوله:

«فهذا مجرى الاستعارات فى كلام العرب»[١].

ويكرر ذلك فى موضع آخر فيقول:

«وإنما تستعار اللفظة لغير ما هو له - إذا احتملت معنى يصلح لذلك الشىء الذى استعيرت له، ويليق به، لأن الكلام إنما هو مبنى على الفائدة فى حقيقته ومجازه، وإذا لم تتعلق اللفظة المستعارة بفائدة النطق فلا وجه لاستعارتها»[٢]

ويقول فى مقام تفضيل طريقة البحترى فى نظم الشعر:

«وليس الشعر عند أهل العلم إلا حسن التأنى وقرب المأخذ، واختيار الكلام ووضع الألفاظ فى مواضعها، وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه المستعمل فى مثله، وأن تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له، وغير منافرة لمعناه، فإن الكلام لا يكتسى البهاء والرونق إلا إذا كان بهذا الوصف»[٣].

والقاضى الجرجانى يضع القاعدة نفسها، ويشدو على النغم نفسه، ويزن الاستعارة بالميزان عينه، ويرجع جودتها وقبحها إلى مذاهب العرب القدماء فيقول:

«وكانت العرب إنما تتفاضل بين الشعراء فى الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، وتسلّم السبق فيه لمن وصف فأصاب، وشبّه فقارب، ولمن كثرت سوائر أمثاله. وشوارد أبياته، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة، ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض»[٤].

وجاء المرزوقى وجعل مناسبة المستعار منه للمستعار له من صلب عمود الشعر، ومعيار جودته، فقال:

---

(١) الموازنة جـ١/٢٥٠.
(٢) الموازنة جـ١/١٩١
(٣) الموازنة جـ١ / ٤٠٠
(٤) الوساطة ٢٧.

« إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة فى الوصف، ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاث كثرت سوائر الأمثال، وشوارد الأبيات، والمقاربة فى التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتئامها، على تخير من لذيذ النظم - ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى، وشدة اقتضائها للقافية حتى لا منافرة بينهما، فهذه هى سبعة أبواب هى عمود الشعر، ولكل باب منها معيار »[1].

فالاستعارة الجيدة عند كل هؤلاء النقاد لا تكون إلا إذا حسن التشبيه، وقربت المناسبة بين الطرفين، وتلاحمت الصلات بين المستعار والمستعار له، وعلى هذا سارت بواكير النقاد فيها تبعا لما عرف عن الأقدمين، وأثر عن السابقين.

ولقد جلى تلك الفكرة، وأوضحها، وشرح حقيقة الصلة بين المستعار والمستعار له الإمام عبد القاهر الجرجانى، ونشعر فى شرحه بطول النفس عمن سبقوه، فقال فى الفصل الذى عقده فى الفرق بين الاستعارة والتشبيه[2]:

« ومما يجب أن تجعله على ذكر منك أبدا، وفيه البيان الشافى أن بين القسمين تباينا شديداً، أعنى بين قولك: زيد أسد، وقولك: رأيت أسداً، وهو ماقدمته لك من أنك قد تجد الشيء يصلح فى نحو: زيد أسد، حيث تذكر المشبه باسمه أولا، ثم تجرى اسم المشبه به عليه، ولا يصلح فى القسم الآخر الذى لا تذكر فيه المشبه أصلا وتطرحه.

ومن الأمثلة البينة فى ذلك قوله أبى تمام:

وكان المطل فى بَدءٍ وعَوْدٍ دخَاناً للصَّنيعةِ وهى نارُ

فقد شبه المطل بالدخان، والصنيعة بالنار، ولكنه صرح بذكر المشبه، وأوقع المشبه به خبراً عنه، وهو كلام مستقيم، ولو سلكت به طريقة ما يسقط فيه ذكر المشبه، فقلت مثلا: « أَقْبَسْتَنِي نارًا لها دخان » كان ساقطًا، ولو قلت: « أَقْبَسْتنى

---

(١) مقدمة شرح المرزوقى لحماسة أبى تمام ٤.

(٢) أسرار البلاغة ١٨٩.

نوراً أضاء أفقى به» تريد علماً، كان حسناً، حسنه إذا قلت: «علمُك نورٌ فى أفقى»، والسبب فى ذلك أن اطراح ذكر المشبه، والاقتصار على ذكر المشبه به، وتنزيله منزلته وإعطاءه الخلافة على المقصود -إنما يصح إذا تقرر الشبه بين المقصود وبين ما تستعير اسمه له، وتستنيبه فى الدلالة، وقد تقرر فى العرف الشبه بين النور والعلم، وظهر واشتهر، كما تقرر الشبه بين المرأة والظبية، وبينها وبين الشمس، ولم يتقرر فى العرف شبه بين الصنيعة والنار، وإنما شىء يصنعه الآن أبو تمام ويتمحله، ويعمل فى تصويره، فلا بُدّ له من ذكر المشبه والمشبه به جميعاً، حتى يعقل عنه ما يريده، ويبين الغرض الذى يقصده وإلا كان بمنزلة من يريد إعلام السامع أن عنده رجلا هو مثل زيد فى العلم، فيقول له: «عندى زيد»، ويسومه أن يعقل من كلامه أنه أراد أن يقول: عندى رجل مثل زيد، أو غيره من المعانى، وذلك تكليف علم الغيب».

فالإمام عبد القاهر يرى أن اطراح المشبه والاقتصار على المشبه به، واستعارة المشبه به للمشبه، وتنزيله منزلته، وإعطاءه الخلافة على المقصود، لا يصح ذلك فى كل الحالات، وحتى حين تتلمَّس له أدنى الصلات، وأقل قربى بين الطرفين، كالصلة الواهية بين الصنيعة والنار، وإنما تقبل الاستعارة وتحسن إذا تقرر الشبه، ووضحت الصلة بين الطرفين، كالصلة الوثيقة بين العلم والنور، والمرأة والظبية، والمرأة والشمس.

* * *

وهذه النظرة إلى الاستعارة ومدى ملاءمة أحد الطرفين للآخر كانت لها جذور قديمة عند المتكلمين، فقد حرص المتكلمون على تأييد تأويلاتهم للمجاز فى القرآن الكريم بالرجوع إلى لغة العرب واستعمالاتهم فى الشعر القديم.

فالمعتزلة مثلا - كانوا يعتمدون فى تأويلاتهم للمجاز فى القرآن على أساس لغوى واحترام ثابت لما ثبت من لغة العرب، وكانوا يدركون أن تأويلاتهم العقلية للمجاز القرآنى لا تُقنع ما لم يكتسب الشرعية من الأساس اللغوى، فالآيات التى تسند الكلام إلى الخالق، والحوار الذى يدور بين الكائنات لا يؤدى معنى القول

الحقيقى، وإنما هى مجازات لها حقائقها المجردة، والشعر القديم ملىء بالنظائر والأشباه، «فقالوا فى قوله للسماءِ والأرض : (ائْتِيا طوْعاً أَوْ كرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعين) لم يقل الله ولم يقولا، وكيف يخاطب الله معدوما؟ وإنما هذه عبارات لكوناهما فكانتا، قال الشاعر حكاية عن ناقته :

تقولُ إذا درأتُ لها وضينى أهــذا دينُــه أبــداً ودينى

وهى لم تقل شيئاً من هذا، ولكنه رآها على حال من الجهد والكلال فقضى عليها بأنها لو كانت ممن تقول لقالت مثل الذى ذكر[١].

فكانت العودة إلى لغة العرب والشعر القديم مبدأ ثابتاً، جعل النقاد والبلاغيين - وجلهم من المتكلمين - يقدسون أوضاع اللغة القديمة التى جاء القرآن معبراً بأفضل أساليبها.

ولأن القرآن فى مجازاته يسير على سَنن العرب فى الخطاب، وطريقتهم فى تقاليدهم اللغوية، فمن المسلم به أن يطالب كل متحدث بالحفاظ على تلك اللغة والسير على مقتضى موروثاتها، ولا بد أن تصحح مجازات الشاعر المحدث فى ضوء مجازات الشعر القديم، يقول الجاحظ : وليس هذا مما يطرد لنا أن نقيسه، وإنما نقدم على ما أقدموا، ونحجم عما أحجموا، وننتهى إلى حيث انتهوا»[٢]. ومعنى هذا أنه إذا كان العرب يسمون الرجل جملا ولا يسمونه بعيراً، ولا يسمون المرأة ناقة، ويسمون الرجل ثوراً، ولا يسمون المرأة بقرة، ويسمون الرجل حماراً، ولا يسمون المرأة أتانا، ويسمون المرأة نعجة ولا يسمونها شاة[٣] فحتم على الشاعر المحدث أن يسير على نهج العرب، وألا يفعل سوى ما فعلوا - لأن هذا من قبيل الأشياءِ التى لا يقاس عليها[٤].

* * *

---

(١) تأويل مشكل القرآن ٨٣

(٢) الحيوان جـ١ ٢١٢، الصورة الفنية فى التراث النقدى والبلاغى ١٧٣.

(٣، ٤) الحيوان جـ١/ ٢١٢، الصورة الفنية فى التراث النقدى والبلاغى ١٧٣و

وفى ظل هذا المبدأ نظر النقاد والبلاغيون إلى استبعاد كل استعارة تتمرد على تلك الأساس فنجدهم يقبلون كل استعارة يظهر فيها التلاؤم بين المعنى الحقيقى والصورة المجازية كالتلاؤم بين «المرأة والظبية»، لأن التناسب بين طرفى التشبيه يؤدى إلى التناسب فى الاستعارة لأنها مبنية عليه، كما نراهم يبرءون من كل استعارة فقدت هذا التلاؤم ويصفونها بالقبح والسماجة، كقول المتنبى :

مِلِكٌ مُنْشِدُ القَرِيضِ لدَيْه　　يَضَع الثوب فى يَدَىْ بَزَّارِ[1]

فهل يليق بالشاعر الذى يستعطف الممدوح ليرقَّ له ويمنحه على مدحه بأن يجعله من بائعى الثياب وعارضى الأزياء؟

وقد بلغ أبو تمام فى ذلك الغاية، فقد خرج على الناس بنوع جديد من الشعر أخرجه من عقله لا من قلبه، فقد كان يغوص على المعانى، ويعمل فيها خياله البعيد، فتم له نوع من الشعر لم يسبق إليه، وشأن كل جديد فى كل عصر ومصر، وفى كل علم وفن أن يثير جدالا ويبعث نقاشاً، ومن ذلك قوله :

لنْ يأكُلوا هُمْ ولا عَشيرتهم　　ما كنَزُوا من صَامِتِ الحسبِ

فلهم من الحسب المدخر مالا يفنى، وهم لم يأتوا عليه أكلا، فقد تمثل الشاعر هؤلاء الناس قوماً لم يأكلوا ما كنز لهم من حسب فالاستعارة ليست واقعة موقعها.

وقوله :

لا تَسْقِنِى ماءَ المَلَامِ فإننى　　صَبٌّ قد استعذَبْتُ ماءَ بُكائى[2]

فإضافة «الماءِ» للملام فيه استهجان وقبح.

وعلى أحسن ماقيل فى تجويز الاستعارة فيه : أن شبه الملام بظرف الشراب، لأن الظرف قد يشتمل على ما يكرهه الشارب لبشاعته أو مراراته - استعارة بالكناية - ثم أثبت له الماء تخييلا، أو يكون شبه الملام بالماء نفسه لأن اللوم قد يسكن حرارة

---

(١) القريض : الشعر، البزاز : بائع الثياب.

(٢) المعنى : لا تلمنى فإنى عاشق قد ألفت البكاء واستعذبته فلا أكاد أقلع عنه للومك إياى فكف عنى - انظر شرح التبريزى جـ١/٢٢

الغرام، كما أن الماء قد يطفىء حرارة الأوام، ثم أضيف المشبه به للمشبه، كما في «لجين الماءِ» فيكون تشبيها، لا استعارة.

وعلى كلا التقديرين فيه استهجان من جهة أنه كان ينبغي أن يشبه الملام بظرف شراب مكروه على الاحتمال الأول، أو بشراب مكروه على الاحتمال الثاني، ولا دلالة في البيت على وصف الكراهة، بل مفاده أن تشبيه الملام بمطلق شراب، أو بمطلق ماء[١].

ومع أن أبا تمام كان له أنصار يستحسنون كل ما يستقبح الناس كأبي بكر الصولي[٢] وغيره، إلا أن ابن سنان عاب الاستعارة في هذا البيت، وقال[٣]:

«وليس هذا البيت عندي بمحمود، ومن أقبح ما يكون بعد، قول أبي تمام:

لَها بين الملوكِ مَزامِرٌ من الذِّكر لم تُنْفخْ ولا هي تُزْهَرُ[٤]

وقوله:

إلى ملكٍ في أَيْكَةِ المجدِ لم يزلْ على كَبِد المعروف من نيْله بَرْدُ[٥]

وقوله:

وتْقسم الناسُ السخَاءَ مجزءا وذهبتَ أنت برأسه وسَنامه
وتركتَ للناس الإهابَ وما بَقى من فَرْثه وعُروقه وعظامه[٦]

فانظر كيف جعل للذكر مزامر لم تنفخ، وللمعروف كبدا لم تبرد، ولم يقنع بأن استعار للسخاءِ رأساً وسناماً وإهاباً وعظاماً وعروقاً حتى جعل له فرثا؟»

ثم أخذ يتعجب من أبي تمام - بعد أن ذكر مقابح استعاراته - لأنه يأتي

---

(١) مذكرة البلاغة ١١٦.
(٢) أنظر أخبار أبي تمام ٣٣، والموازنة جـ١/٢٦١.
(٣) سر الفصاحة ١٣٠ وما بعدها.
(٤) لها: الضمير يعود إلى «مدحه» في بيت سابق، تزهو، في رواية تزمر، شرح التبريزي جـ٢/٢١٦.
(٥) الأيكة: الشجر الملتف، أيكة المجد: من إضافة المشبه به إلى المشبه، شرح التبريزي جـ٢/٨٧.
(٦) شرح التبريزي جـ٣/٢٤٦.

بالعجب العجاب، ويجمع بين كل الاستهجان، وكل الاستحسان فقال :

وتعالى الله كيف يذهب على من يقول؟ :

أخرجتموهُ بكرْهٍ من سَجِيتِه والنارُ قد تنتَضَى من نَاضِرِ السلَم[١]

ويقول :

وإذا أراد الله نَشْرَ فَضِيلَةٍ طويَتْ أتاح لها لسان حسُودِ
لولا اشْتِعالُ النار فيمَا جَاوَرَتْ ما كان يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُود

لكن أعوز الكمال، واستولى الخلل على هذه الطباع، فالمحمود من كانت سيئاته مغمورة بحسناته، وخطؤه يسيرًا فى جانب صوابه».

وقوله أيضًا :

بَلوْنَاك أما كعبُ عِرْضك فى العُلا فَعَالٍ، وأما خَدُّ مالِك أسفلُ

فجعل للعرض كعبا، وللمال خدا حين أراد أن يصور أن عرض الممدوح مصون وأن ماله مبتذل، فسخف، لأن استعارة الكعب للعرض، والخد للمال مما لا يخطر على البال لبعده.

وأما قوله تعالى : (واخْفِضْ لهما جَنَاحَ الذُّلِّ من الرحمة)، فإنه من الاستعارة الحسنة الصائبة ذلك أن الطائر إذ ونى أو تعب بسط جناحيه وخفضهما وألقى نفسه على الأرض، وللإنسان جناح وهو يده، فإذا خضع واستكان طأطأ رأسه وخفض يده، فحسن لذلك جعل الجناح للذل، إذ الذل يصور الإنسان بصورة انخفاض وهَوَانٍ، فيسهل تشبيهه بطائر.

وكذلك قول أبى نواس :

بُحَّ صوتُ المالِ مما منك يَشْكو ويَصيح

فقوله : «بح صوت المال» من الكلام النازل، ومراده من ذلك أن المال يتظلم

---

(١) السلم شجر يدبغ به واحدة سلمة، يريد خرج من الحلم الى الغضب.

من إهانتك إياه بالتمزيق، فالمعنى حسن والتعبير عنه قبيح، فقد ساقه سياقًا مستكرهًا، وأخرجه مخرجًا مستهجنًا[١]، وقوله أيضًا:

مـا لِرجْـل المالِ أَمسَتْ   تشتكى منـك الكَـلالا

فإضافة الرجل إلى المال أقبح من إضافة الصوت إليه.

وقد قال فى المعنى نفسه مسلم بن الوليد فأجاد وأحسن:

تَظلم المالُ والأعداءُ من يده   لا زال للمال والأعداء ظَلاما

وكذلك قول المتنبى:

شَرفٌ يَنْطح النجومَ بقَرْنَيْـ   ـه وعِـزٌ يقَلْقِـل الأجْبَـالا

فقد جعل للشرف قرنًا، وهذه استعارة قال عنها القدماء: إنها استعارة خبيثة، وقد أخذ هذا من بيت أبى تمام فأفسده:

همـة تنطح الـثريا وَجَـدٌّ   آلِفٌ للحضيض فهو حضيض[٢]

* * *

ولا نحب أن نكثر من عرض تلك الاستعارات التى لم يوفق قائلوها، فلم تحسن فى مكانها، وإنما المراد التنبيه إلى الفرق بين الاستعارات المستحسنة وغيرها، وبيان سبل الاستحسان.

وخلاصة القول:

إن حسن الاستعارة يكون بمقدار ما بين المشبه والمشبه به فى التقارب والتماثل، وتَصور الجمع بينهما فى الذهن، ليصور المشبه فى صورة تحقق غرض القائل، ولذلك كان الأدب المسمى بالرمزى بعيدًا عن البلاغة، لأن الألفاظ فيه تستعمل كثيرًا فى معان يصعب إدراك الصلة بينها وبين المعانى الأول لهذه الألفاظ.

---

(١) يرى الدكتور زكى مبارك أن ما ذهب إليه أبو نواس صحيح، فهو قريب العهد بمال الأعراب ومال الأعراب ناطق، وطالما اضطربت الإبل لسكين الجزار عند قدوم الضيفان (الموازنة بين الشعراء ١٩).

(٢) قصص العرب جـ٣/٣١٦.

والاستعارة فى هذا تختلف عن التشبيه، فإن التشبيه يأتى فيما ظهر وجهه وفيما خَفى وبَعد، وكلما احتاج إدراك الوجه إلى إمعان الفكر، وتدقيق النظر كان أغرب وأجود[1]، «متى أصيب بين المختلفين فى الجنس، وفى ظاهر الأمر شبها صحيحا معقولا، وتجد للملائمة والتأليف السوى بينهما مذهبًا وإليهما سبيلا.

فأمَّا أن تستكره الوصف وتروم أن تصوره حيث لا يتصور فلا، لأنك تكون فى ذلك بمنزلة الصانع الأخرق يصنع فى تأليفه الشكل بين شكلين لا يلائمانه ولا يقبلانه، حتى تخرج الصورة مضطربة، وتجىء فيها نُتوّ، ويكون للعين فيها من تفاوتها نُبوٌّ[2].

لكن الاستعارة بعكس ذلك، ينبغى أن يكون الوجه فيها جليًّا واضحًا، وإلا صارت من قبيل الألغاز والأحاجى.

* * *

الاستعارة غير المفيدة

من علامات سعة اللغة ومرونتها أن يخصص أصحابها لكل معنى من المعانى لفظًا خاصا به يدل عليه، حتى لا يتوهم الاشتراك الذى يؤدى إلى كَدِّ الذهن فى تحصيل المراد، وإلى الخفاء فى الدلالة على المقصود.

وعلى المتحدث أن يلاحظ وضع اللغة عند استعماله لتلك الألفاظ، لئلا تفوت الحكمة التى قصد إليها واضع اللغة.

فالعرب - مثلا - وضعت للعضو الواحد أسامى كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان، فوضعوا «الشَّفَة» للإنسان، و«المِشْفَر» للبعير، و«الجَحْفَلة» للفرس، كذلك خصوا «المَرْسِن» بأنف البعير، و«التُّولب» لولد الحمار، و«الأظْلاف» للشاة والبقرة كـ«الظفر» للإنسان وما شاكل ذلك من فروق.

---

(١) انظر فصل «التشبيه المبتذل والغريب».

(٢) أسرار البلاغة ١٣٠، نتو: نتوء، وجملة «فيها نتو: حال من ضمير يجىء.»

فإذا استعمل الشاعر شيئًا منها فى غير الجنس الذى وضع له، فقد استعاره منه، ونقله عن أصله وجاز به موضعه فالشاعر الذى يقول:

فبِتْنا جُلوسًا لَدَى مُهرِنا　　نُنَزِعُ من شفتَيْه الصُّفَارَا[١]

فاستعمل «الشفة» فى الفرس، وهى موضوعة للإنسان، هو بهذا الاستعمال لا يفيد شيئًا زائدًا عن اللفظ المختص وهو: «الجَحْفَلة»، إذ لا فرق بين قوله: من شفتيه، وقوله: من جَحْفَلَته، فاستعمالها كاستعمال الحقيقة فى خلوها من مزية البلاغة.

بل إن الاستعارة تنقص جزءًا من الفائدة، فقد فوتت غرضًا من أهم الأغراض اللغوية وهو التخصيص الذى أراده صاحب اللغة، وهذا يؤدى إلى إظهار الأديب فى صورة الجاهل بأوضاع اللغة، ودلالتها على معانيها.

كما يؤدى إلى إيهام الاشتراك، وأن «الشفة والجحفلة والمشفر» ألفاظ مترادفة، وكل منها يدل على العضو المخصوص فى بقية أنواع الحيوان.

ومثل هذه الاستعارة يسميها عبد القاهر الاستعارة غير المفيدة[٢].

ومثل ذلك قول الآخر يصف إبلا حين تشرب:

تسمعُ الماء كصَوْتِ المِسْحَل　　بين وَريدها وبين الجَحْفَلِ[٣]

فقد استعمل «الجحفل» بدلا من «المشفر».

وقول رؤبة:

أيامَ أبدت واضحًا مُفَلَّجا　　أغَرَّ بَرَّاقا وطرفًا أدْعَجا
ومُقْلَةً وحاجبًا مُزَجَّجا　　وفاحمًا ومَرْسِنًا مُسَرَّجا[٤]

---

(١) الصفار: القراد، وما بقى فى أصول أسنان الدابة من التبن ونحوه، وهو المراد هنا.

(٢) أسرار البلاغة ٢٣.

(٣) المسحل: كمنبر، حمار الوحش، له حشرجة يشبهون بها كثيرًا، وهو آلة السحل أيضًا، ومنه المبرد.

(٤) واضحًا: أى سنا واضحا، الفلج: بالتحريك، تباعد ما بين الاسنان، أغر: أبيض، الدعج: بالتحريك، اتساع العين وحسنها، المقلة: المراد حدقة العين، التزجيج: الترقيق، فاحما أى شعرًا فاحمًا (انظر المعانى فى ضوء أساليب القرآن للمؤلف ٤٨).

فاستعمل الشاعر «المرسن» فى أنف المرأة، على الاستعارة[١].

وكذلك قول أوس بن حجر:

وذاتُ هِدْمٍ عارٍ على نواشرُها تُصْمت بالماء تَـوْلَبًا جَـدِعَا[٢]

فأجرى «التولب» على ولد المرأة وهو موضوع لولد الحمار.

وقول مُزرِّد:

فما رَقَد الولدانُ حتى رأيتُـه على البَكْر يَمْريه بساقٍ وحافر[٣]

فقد قالوا: أراد أن يقول: بساق وقدم، فلما لم تطاوعه القافية وضع الحافر موضع القدم.

وكل هذه الشواهد عدها الإمام عبد القاهر[٤] من قبيل الاستعارة غير المفيدة - التى لا تخرج عن مجرد التوسع اللغوى، فلا تهدف إلى مبالغة فى التصوير، ولا إلى فائدة بلاغية.

أما إذا هدفت إلى معنى وأريد بها غرض بلاغى، فاستعملت مثلا فى موضع الذم والمبالغة فى الهجاء والتهكم فعندئذ تكون من الاستعارة المفيدة.

ومن ذلك قولهم: «إنه لغليظُ الجحافل، وغليظ المَشَافر» فى مواضع الذم، فصار بمنزلة أن يقال: كأن شفته فى الغلظ مشفر البعير، وجحفلة الفرس.

فالاستعارة فى مثل هذا بنيت على تشبيه، وأفادت ذما، وعلى هذا جاء قول الفرزدق يخاطب أيوب بن عيسى الضَّبى، وكان قد حبسه، فقال يهجوه ويطعن فى نسبه من جهة أمه:

---

(١) سمى السكاكى هذا النوع مجازًا مرسلا خاليًا من الفائدة، ويرى صاحب أنوار الربيع أن الحكم بأنه من الاستعارة أو المجاز المرسل إنما هو تابع لقصد المتكلم فإن لاحظ المتكلم المشابهة فهى استعارة، وإن لاحظ الإطلاق بعد التقييد فمجاز مرسل (انظر المفتاح ١٧٢، بغية الإيضاح جـ٣/١٠٣، أنوار الربيع ٢١٨).

(٢) الهدم: الثوب البالى، النواشر: جمع ناشرة، وهى عصب فى باطن الذراع، تصمت: تسكت، الجدع: السىء الغذاء.

(٣) يمريه: يستخرج ما عنده من السير.

(٤) الأسرار ٢٣:

فلو كنتَ ضَبيًّا عرفتَ قرابتى ولكنَّ زنجيًّا غليظ المشافر

أى، ولكن زنجيًّا لا يعرف قرابتى (وبنوضبه : هم أخوال الفرزدق). ومثله قول الحطيئة يذم الزبرقان بإضاعة الضيف :

قَرَوْا جَارَك العَيْمانَ لما جَفَوْتَه وقَلَّص عن بَرد الشراب مَشَافره[1]

فاستعمل كلا الشاعرين «المشافر» مكان «الشفة» للإنسان، وقد صارت الاستعارة مقبولة لبنائها على تشبيه مقبول، وأريد بها غرض بلاغى حيث استعملت فى الذم والهجاء.

استعارات لا تستسيغها البيئة

الاستعارة أساسها التشبيه – وقد عرفنا أن التشبيه يختلف فى قيمته وحسنه تبعًا للزمن والبيئة، ويسرى هذا الحكم على الاستعارة أيضًا، فمثلا يقول زهير ابن أبى سلمى فى وصف آثار الحرب :

وما الحربُ إلا ما علمتمْ وذقتمُ وما هو عنها بالحديث المرجَّم
فتعركْكم عَرْكَ الرَّحَى بِثِفالها وتلقحْ كِشَافًا ثم تُنْتَجْ فَتُتْئِم[2]

فزهير يحذر قبيلتى عبس وذبيان من آثار الحرب السيئة ويقول لهم : إنها تفنى رجالكم، وتهلك أبطالكم، وتجعلكم كالحَب عندما يدخل الرحى، فلا يخرج إلا وهو مفتت ومطحون، ثم يقول : إن الشرور والآثام التى تصاحب الحرب وتلازمها، تصل من الكثرة والعظم حتى تكون بمنزلة أولاد النوق التى تواصل الولادة كل سنة وليتها تقتصر على مولود واحد فقط، بل تلد فى السنة توأمين.

(١) قروا : أضافوا، العيمان : العطشان إلى اللبن، قلص : انقبض وانكمش من تأثير البرد، أى لم يجد عنده إلا الماء، فمن العطش تورمت شفتاه حتى صارت كأنها المشافر.

(٢) الحديث المرجم : الذى ليس بمستيقن، العرك : الطحن، الثفال : جلدة أو خرقة تجعل تحت الرحى ليقع عليها الطحين، اللقاح : الحمل، كشافًا : أن تلقح الناقة كل سنة، وذلك أردأ النتاج، وأحسنه أن تحمل سنة وتستريح سنة، تتئم : تلد اثنين فى بطن، والباء فى «بثفالها» بمعنى مع، مثل جاء فلان بالسيف، أى ومعه السيف (المعلقات ٩٤).

ففى الشطر الأول من البيت استعارة تبعية فى «تعرككم»، فقد جعل إفناء الحرب للقوم بمنزلة طحن الحب فى الرحى.

وفى الشطر الثانى منه استعارة تمثيلية، إذ استعار النوق التى تلد فى السنة توأمين مثلا لكثرة الشرور والآثام الناجمة عن الحرب.

وزهير بهذا التصوير للحرب، يُعَد فى قائمة البيانيين عند القدماء، لأنها صورة منطبقة تمامًا على البيئة الصحراوية التى كان عملها المستمر فى نهارها وشغلها الشاغل فى ليلها هو طحن الحَب بالرحى، والرعى، واستخدام الإبل فى الصحراء.

ولكن اليوم قد خفيت الصورتان، لذلك لم تكن استعارتهما موضحة، ولا راسمة للصورة المطلوبة، كما كان ذلك فى زمنهم.

ويقال: «يَبِس الثرَى بين الصَّديقيْن، ويجعلون ذلك مثلا لما بين الصديقين إذا تقاطعا وفسد ما بينهما، كما يقال: «جَمُد الثلج بينهما»، ويستعار ذلك لحال الصديقين إذا تقاطعا وفسد ما بينهما كذلك.

فالاستعارة الأولى لا يتضح معناها ولا يحسن استعمالها إلا فى بلد ذى زرع ومراع، فإذا نزلت الأمطار أمرعت وبدا خصْبها وجمالها، وإذا حرمت المطر، يبست وأجدبت، وبدت وحشتها وإقفارها.

والصورة الثانية لا يحسن استعمالها إلا فى بلاد ذات بحار يتجمد ماؤها ويشاهد الرائى جمود ما بين السفينتين حتى يستحيل أن تصل إحداهما بالأخرى.

وإذا استعملت هاتين الجملتين هذا الاستعمال دلت الصورة المرئية على ما يراد تصويره مما بين الصديقين من قطيعة، وعدم تواصل.

أما إذا عكس الاستعمال فاستعملت الجملة الأولى لجماعة فى واد غير ذى زرع وليس محلا للمراعى والأمطار، ولا يدركون يبس الثرى وجدبه، ولا إمراعه وخصبه، فتكون الصورة منكرة ودلالتها غير جلية.

وكذلك إذا استعملت الجملة الثانية فى بلاد ساطع شمسها، دائم دفؤها، تصير

الصورة باهتة وغير بينة.

وقد أخذت العرب كثيرًا من الاستعارات من أوصاف الناقة. كانوا يألفونها أىَّ إلف، ويعرفون أجزاءها، فاستمدوا منها الاستعارات، ووسعوا بها اللغة، وأكثروا بها سبل التعبير فقالوا:

أناخ عليه بكَلْكَلِه، ووطئه بمَنْسمه، وألقى الحَبْل على الغَارِب، ومازال يَفتِل منه فى الذرْوَة والغارِب، ولا ناقَةَ لى فيها ولا جمل.

وقد كانت تلك الصور حسنة التصوير عندهم، واضحة الدلالة عما يريدون، ونحن الآن لا نستعملها إلا عن طريق التقليد والمحاكاة، إذ لا توضح لنا ما كانت توضح للعرب، لأنهم كانوا يرون الناقة، ويعرفون بالدقة صفاتها وخصائصها.

وكانوا يضربون المثل فى بعد المسافة - قديمًا - فيقولون: قطع ما بين غَانَة وفَرْغَانة، وغانة: بلد فى غرب إفريقيا كانت أبعد المحطات غربًا، وفرغانة: فى بلاد الترك، وكانت أبعد البلاد شرقًا، واليوم لم تبق لهما هذه الخاصية وليس لهما من الشهرة فى الأسفار حتى يضرب بهما المثل فى البعد.

على أن من الاستعارات استعارات واضحة الدلالة فى كل وقت وزمان لبنائها على شىء طبيعى لا يكاد يختلف باختلاف العصور، كما نشاهد ذلك فى استعارات القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: (واذْكرُوا نعمة الله عليكم إذْ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصْبَحْتم بِنعْمته إخوانًا وكنتم على شَفَا حُفرةٍ من النار فأنقذكم منها) (آل عمران ١٠٣).

فقد كان العرب فى الجاهلية بسبيل أن يهلك بعضهم بعضًا، لما بينهم من خصومة وعداء، ومن غارات وحروب، فصورهم القرآن فى صورة من كان على حافة حفرة ملئت نارًا، لا يلبث أن تزل به قدمه فيهوى إلى النار، ثم تكون المفاجأة فى الإنقاذ بالإيمان، لذلك عبر بالفعل الماضى «فأنقذكم منها».

وقوله: (أفَمنْ أسَّسَ بُنْيَانَه على تَقْوى من الله ورِضْوان خيرٌ أم من أسَّسَ بنيانَه على شَفَا جُرُفٍ هَارٍ[1] فَانْهَارَ بِهِ فى نارِ جهنَّم) (التوبة ١٠٩).

(١) الشفا: الحرف، جرف الوادى: جانبه الذى تجرفه السيوف فيبقى واهيًا، هار: متصدع.

فحينما نتمثل بناء أقرت أُسُسُه على حافة نهر تجرفها المياه، ونقدر ماله من بقاء، أو استقرار، نوقن أنه بناء منهار متساقط، فهذا مثل العمل الذى أسس على نفاق ورياء، يكون لا قرار له ولا أمل فى بقائه واستمراره.

وعودة إلى شواهد القرآن السابقة يتضح ذلك كل الوضوح.

الإسراف فى صور البيان

عرفنا أن صور البيان من التشبيه والاستعارة والكناية، تعين على توضيح الفكرة، وتعمل على جلاء الصورة، ويُحِس المتلقى لأحد صورها بالمعنى مصورًا شديد القوة، عظيم التأثير، وهذا إذا حسن استعمالها، وأجيد اختيارها، ووضعت فى أليق المواضع بها.

إلا أن هذه الوسائل البيانية ينبغى أن تستعمل فى الكلام بقَدَر، فإذا استكثر منها كثرة تجاوز الحد اللائق بالمقام عادت سببًا للخفاء، وكدَّت العقل فى فهم المعنى وتصوره.

فمثلا قول الشاعر يصف حبيبته حين علمت فراقه:

فأمطرتْ لؤلؤًا من نرجَسٍ، وسقَتْ ... وردًا، وغضَّت على العُنَّاب بالبَرَدِ

فقد عبر عن البكاء بالأمطار، وعن الدمع باللؤلؤ، وعن العين بالنرجس، وعن تحدر الدمع على الخد بالسقيا، وعن الخد بالورد، وعن الأنامل - أو الشفتين - بالعناب، وعن الأسنان بالبرد.

فأكثر الشاعر من الاستعارات المتتابعة فى البيت الواحد، ففيه سبع استعارات من مجموع الكلمات العشر للبيت، فتتابع تلك الاستعارات وكثرتها استلزمت كَدَّ عقل السامع وتلاحق تفكيره حتى يفهم المعنى ويتمثَّل المراد، كما أن تتابعها دليل على عناء القائل، وتكلفه فى حشدها، وسببًا لجهد الشاعر فى صوغها.

ومثله قول الشاعر:

تَفْتَرُّ عن لؤلؤٍ رَطْبٍ، وعن بَرَدٍ ... وعن أقاحٍ، وعن طَلْعٍ، وعن حَبَبِ

فنرى تراكم الاستعارات فى البيت مما أجهد عقل السامع فى فهم الصورة وأتعب الشاعر فى صوغها.

«فلا ينبغى ألا يسرف الشاعر على نفسه فى استخدام المجاز والاستعارة حتى لا يتحول شعره إلى طلاسم تخنق أفكاره خنقًا، وحقًّا إن لغة الشعر تقوم على الإيجاز والرمز، لكن ينبغى أن يكون كالكيميائى الذى يحسن مزج العناصر بعضها ببعض ليصل إلى تجربة يقرها العلم، فلا يزيد عنصرًا زيادة من شأنها أن تخلخل التجربة، أو تحيلها عثاء، والشاعر يخفق حين يسرف فى استخدام الكلمات المجازية الرامزة، لأنه إن زاد عن حده، انقلبت لغة الشاعر إلى رموز، بل إلى ألغاز وأحاج لا تفهم، ومن ثم كان المذهب الرمزى يحتاج إلى يد صَنَّاع، بحيث لا ينقلب الظل الهفهاف إلى غيم مظلم، بل ليل داج، لا يتبين فيه أحد شيئًا، إذا تراكمت فيه الظلمات بعضها فوق بعض»(١).

ومثل تراكم الاستعارة تراكم التشبيه، مثل قول أبى القاسم الزاهى:

سَفـرْن بُدُورًا، وانْتقبنَ أَهِلَّة ... ومِسْنَ غصُونًا، والتفَتنَ جآذِرَا

وقول الآخر:

بدتْ قمرًا، ومالتْ خوطَ بانٍ ... وفاحتْ عنْبرًا، ورَنتْ غـزَالاَ

وقول الآخر:

هى الظَّبْىُ جِيدًا، والغزالةُ مُقلَةً ... ورَوْضُ الربا عَرْفًا، وغُصْنُ النَّقَاقدًّا

وقول البحترى:

ذات حسْنٍ لو استزادَتْ من الحُسْـ ... ـنِ لَمَـا أَصَـابتْ مَـزِيـدا

فهى الشمسُ بهجةً، والقضيبُ اللدْ ... ن قَدًّا، والرِّيمُ طَرْفًا وجِيدَا

فالتشبيه المتتابع يكد عقل السامع بتلاحق تفكيره حتى يتمثل المراد، ويفهم المعنى، كما أنه دليل على تعب القائل، ومكابدته فى الصياغة «ومثل الشاعر الذى

---

(١) فى النقد الأدبى ١١٢.

يرمى بالتشبيهات على صفحتيه من غير حساب، مثل الرسام الذى تغره مظاهر الألوان فيملأ بها رسمه من غير حساب»(١).

* * *

الفرق بين التشبيه والاستعارة

مما سبق يتضح أن الاستعارة تمتاز عن التشبيه بوجوه:

١ - أن التشبيه يقوم على دعامتين هما الطرفان، وملاحظة التعبير الثنائى - المشبه والمشبه به - أما الاستعارة فتلاحظ التعبير الأحادى «المشبه به أو المشبه»، فالحديث فيها عن المشبه به فقط، أما المشبه فتُنوسى وأهمل، بدليل أننا نتحدث عنه بلفظ المشبه به فى الاستعارة التصريحية، أو بصفات المشبه به ولوازمه مع المشبه فى الاستعارة المكنية، فالفواصل أزيلت بين الطرفين، والحواجز قد كسرت بينهما.

٢ - أن التشبيه والاستعارة يتفقان فى كونهما مشاركة أمر لأمر فى معنى، لكن هذه المشاركة فى التشبيه عمادها ذكر الطرفين سواء كانت الأداة والوجه معهما أولا، أما فى الاستعارة فتكون المشاركة فى التجوز المعبر عنه باستعمال اللفظ فى غير ما وضع له، لعلاقة المشابهة.

٣ - الغاية فى التشبيه إلحاق ناقص بكامل، لكنها فى الاستعارة عبارة عن دعوى الاتحاد بينهما، وادعاء أن المشبه عين المشبه به قصدًا إلى المبالغة.

٤ - أن المشبه فى التشبيه يحسن أن يكون ظاهرًا، وأما فى الاستعارة فأنه يحسن أن يكون غير ظاهر، ولهذا قال البلاغيون: لو كان فى الكلام ما يدل على المشبه كان تشبيهًا لا استعارة. ولذا ضعفوا الاستعارة فى قول الشاعر:

لا تعجَبُوا مِنْ بِلَى غِلاَلَتِهِ   قد زَرَّ أَزْرَارَه على القَمَر(٢)

---

(١) مقدمة الجزء الخامس من ديوان عبد الرحمن شكرى ص ٣٦٣.

(٢) البلى: من بلى الثوب إذا فسد، والغلالة: ثوب قصير ضيق الكمين كالقميص يلبس تحت الثوب، وزر القميص: شد أزراره.

قال بعض البيانيين : إن «القمر» مستعار للإنسان الجميل. لكن يُضعف هذه الاستعارة الجمع بين طرفى التشبيه ففى البيت ثلاثة ضمائر تعود على المشبه هى : الضمير فى «غلالته، زرَّ، أزراره» وهذا مما يجعل لفظ «القمر» أقرب إلى التشبيه الضمنى، وهو من أحسن أنواع التشبيه.

وحجة من قال بالاستعارة أن الطرفين ذكرا على وجه لا ينبىء عن التشبيه ولا يدل عليه، لأن سياق الكلام إنما هو لإثبات شىء واقع على «القمر» وهو زر الإزرار، لا لإثبات التشبيه.

وعلى كل فوجود ما يدل على المشبه يجعل الاستعارة رديئة، ولأن يكون رأسًا فى التشبيه أحسن من أن يكون ذيلا فى الاستعارة.

* * *